

الشقاق الليبرالي-الإسلامي في العالم العربي يتم عامه المئوي: إرث استعماري يساعد الطغاة على الحكم اليوم

د. إيزابيث ف. طومسون - بروفيسورة التاريخ ومديرة كرسي محمد سعيد فارسي بالجامعة الأمريكية بواشنطن

ملخص

أدى الشقاق بين شركاء التحالف الإسلامي الليبرالي في الربيع العربي في سوريا ومصر إلى تقويض الثورات وصب في مصلحة الديكتاتوريات العسكرية. لكن في الوقت الذي غالباً ما ينظر فيه إلى هذه الخلافات باعتبارها محورية وغير قابلة للتغيير، هناك في الواقع أدلة وافرة على وجود تعاون تاريخي بين الإسلاميين والليبراليين العرب، فقد عمل الفصيلان السياسيان معاً بدرجات متفاوتة في كل من مصر وسوريا، قبل قرن من الزمان، في أعقاب الحرب العالمية الأولى، بل واتفقا على بعض الموضوعات التي تعد اليوم مصدر خلافات مريرة، بالاعتماد على البحوث الأرشيفية الأصلية، يعيد هذا الفصل الحياة إلى هذا التاريخ المبكر ويظهر أن الانشقاقات التي نشأت بين الليبراليين والإسلاميين لم تكن حتمية، بل كانت نتيجة لأحداث محددة - خاصة التدمير الأجنبي للتحالفات الليبرالية. ويساعد فهم الفشل الدستوري من خلال منظور تاريخي في تفسير سبب استمرار المواد المتعلقة بالإسلام في الدساتير العربية الحديثة على الرغم من طبيعتها الإقصائية. كما يشير إلى إمكانية إحراز تقدم، مهما بدا بعيد المنال، بين المجموعات التي ما تبدو - لو أهملنا هذا المنظور - على أنها فصائل متناحرة في السياسة العربية اليوم.

بدأ الربيع العربي يذوي في القاهرة في أواخر نوفمبر 2012. عندما أصدر محمد مرسي، أول رئيس منتخب بشكل حقيقي في مصر، إعلاناً يمنحه حصانة من الرقابة القضائية بعد أن هددت المحكمة الدستورية العليا ببطلان الجمعية التأسيسية للمرة الثانية. وعاد آلاف من متظاهري ميدان التحرير في 2011 إلى الشوارع، منددين بالرئيس مرسي لحشده الجمعية التأسيسية بالإسلاميين. ادعى مرسي أنه يقوم فقط بالدفاع عن الثورة في وجه نظام قضائي موالٍ للديكتاتور حسني مبارك الذي توحد الإسلاميون والليبراليون لإسقاطه.¹ في الصيف التالي، تم عزل مرسي بواسطة الجيش وقُتل المئات من مؤيديه من الإخوان المسلمين في مذبحة رابعة.

أصبحت عملية صياغة الدستور في مصر مسابقة حزبية صفرية انتهت أخيراً بتفكيك التحالف الثوري وسمحت للجيش باستعادة الحكم.² انقسمت الثورة، على حد تعبير أحد المراقبين، بين الديمقراطيين الإسلاميين والليبراليين النخبويين. «لقد حسنت الانتخابات النزيفة مهارات الإخوان المسلمين الحملاتية». كتب سامر شحاتة في يوليو / تموز 2013، لكنها لم تلتزم التزاماً كاملاً بالتعددية أو تكفل حقوقاً متساوية للأقليات». قد يؤمن خصوم الإخوان بحقوق الأقليات والحريات

¹ Kareem Fahim and David D. Kirkpatrick, "Protesters Gather to Denounce Morsi in Scenes Recalling Uprising," New York Times, November 28, 2012, <https://www.nytimes.com/2012/11/28/world/middleeast/egypt-morsi.html>

² Yasmine Farouk, "Writing the Constitution of the Egyptian Revolution: Between Social Contract and Political Contracting," in Constitutional Reform in Times of Transition, ed. Álvaro Vasconcelos and Gerald Stang (Paris: Arab Reform Initiative, 2014), 98-116.

أن العمليات الدستورية القاعدية والساعية للإدماج تحظى عادة بنتائج أفضل،⁴ يتفق العالم السياسي ناثن براون مع ذلك، من خلال نقده للدستور العراقي الفاشل لعام 2005، الذي تم فرضه من قبل الاحتلال الأمريكي. فلا يوجد حل فقهي لما هو بالأساس مشكلة سياسية. يمكن للدساتير أن ترأب الخلافات على نحو أفضل عندما يتم مناقشتها مع العامة، وليس في الغرف المغلقة، وعندما تكون نتاج تسويات تم التوصل إليها بين مجموعة مصالح محمومة ومتعارضة.⁵

من بين بلدان الربيع العربي، تبرز تونس بوصفها المثال الوحيد الناجح لهذا التمرين الدستوري تحديداً بسبب أن مجلسهم التأسيسي قام بعقد مشاورات عديدة مع طيف واسع من المجموعات الاجتماعية. وفي النهاية، تمكن حزب النهضة الإسلامي والليبراليون العلمانيون من التوصل إلى حل وسط. على النقيض من ذلك، فإن محاولة مرسى للحد من المشاركة في صياغة الدستور المصري لم تؤد إلا لتعبئة المعارضة الشعبية ضده وإلى التدخل العسكري.⁶ بينما صاغ النظام في سوريا دستوراً جديداً دون عقد أي مشاورات تقريباً. ويجعل دستور 2012 الناتج من هذه العملية، ووفقاً لما ذكره فقيهه دستوري سوري بارز، في الواقع الأقليات أكثر عرضة لانتهاكات حقوق الإنسان الخاصة بهم.⁷

المدينة، لكنهم «ليبراليون دون أن يكونوا ديمقراطيين؛ إنهم ينادون بحماس منقطع النظير بعزل الرئيس مرسي ويرغبون في تدخل الجيش».³

اتخذ الانقسام بين الإسلاميين والليبراليين منحىً أكثر دموية في الانتفاضة السورية. إذ انزلت الاحتجاجات من أجل الحقوق الدستورية إلى حرب أهلية، سحق فيها الإسلاميون المسلحون المعارضة الليبرالية الأطلية. وقام نظام بشار الأسد بتصعيد الحرب بدعوى حماية الأقليات السورية من الإرهابيين. وبالمثل، قام قائد الانقلاب في مصر، عبد الفتاح السيسي، باستخدام المسيحيين الأقباط تحت دعاوى الدفاع عن التعددية الديمقراطية في وجه الديماغوجية الإسلامية. وكباقة ورد على قبر للانتفاضات العربية، قدم الديكتاتوريان في كل من سوريا ومصر دساتيرهم الخاصة. ولم تقلل أي من إصلاحاتهم الدستورية من التأثير المتضخم للإسلام في الدساتير السابقة.

هذا وقد طرح الفقهاء الدستوريون أن مثل هذه المقاربات الفوقية لا تنجح. وتخلص كل من أسلي بيلي وهانا ليرنر في استنتاجاتهما إلى أن «التوقع أن صياغة الدستور يجب أن تصمم بحيث تحل الخلافات المجتمعية طويلة الأمد والمتجذرة حول القضايا الدينية هو أمر غير واقعي في كثير من الأحيان»، ويظهر بحثهما

³ Samer S. Shehata, "In Egypt, Democrats vs. Liberals," New York Times, July 2, 2013, <https://www.nytimes.com/2013/07/03/opinion/in-egypt-democrats-vs-liberals.html>.

⁴ Asli Ü. Bâli and Hanna Lerner, "Introduction" to their edited volume, *Constitution Writing, Religion and Democracy* (New York: Cambridge University Press, 2017), 10.

⁵ Nathan J. Brown, "Reason, Interest, Rationality, and Passion in Constitution Drafting," *Perspectives on Politics* 6, no. 4 (2008): 675-89.

⁶ Vasconcelos, "Introduction: Prioritizing the Legitimacy of the Process," in Vasconcelos and Stang, *Constitutional Reform*, 8-14.

⁷ Nael Georges, "Constitutional Reform: The Case of Syria," in Vasconcelos and Stang, *Constitutional Reform*, 117-24; and Nathan J. Brown, "Islam and Constitutionalism in the Arab World: The Puzzling Course of Islamic Inflation," in Bâli and Lerner, *Constitution Writing*, 289-316.

مهدت هزيمة المملكة العربية السورية وثورة 1919 لعصر جديد من السياسة، يحكمه التعارض بين الليبراليين النخبويين المتحالفين مع القوى الأجنبية وتيار جديد من الجماعات الإسلامية التي استقطبت الدعم الشعبي من خلال أجندة معادية لليبرالية ومعادية للغرب. ارتبط تطور الإسلاموية في ثلاثينيات القرن الماضي في كلا البلدين بثلاثة شخصيات بارزة: رشيد رضا، وهو ناشر مجلة واسعة الانتشار تشجع الإصلاح الإسلامي، حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين بمصر، ومصطفى السباعي، مؤسس جماعة الإخوان المسلمين بسوريا.

يشير التاريخ الذي نكشف عنه هنا إلى أن التسوية بين الليبراليين العلمانيين والزعماء الدينيين ليست أمراً فريداً متعلق بالظروف الاستثنائية التي تمر بها تونس اليوم، فلقد تمكن السوريون والمصريون من التوصل إلى تسويات مماثلة قبل قرن من الزمان. كما يشير هذا التاريخ إلى السبب وراء تبني الأحزاب المتعارضة - الإسلاميين الديمقراطيين والليبراليين النخبويين - مثل هذه المواقف المتشددة: فالتدخل الأجنبي، وليس الخصائص الأساسية للإسلام أو الثقافة العربية، هي السبب الرئيسي وراء الاستقطاب السياسي. أخيراً، يجيب هذا التاريخ أيضاً عن سؤال لماذا لا تزال الدساتير السورية والمصرية مثقلة بلغة متناقضة بشأن الحقوق المدنية والإسلام.

يتبنى هذا الفصل منظوراً تاريخياً بشأن الانسدادات الدستورية في سوريا ومصر. فلقد فشلت تحالفات 2011 في إنهاء الديكتاتوريات لأسباب عدة، لكن سبباً رئيسياً للفشل كان انعدام الثقة العميق بين الليبراليين العلمانيين وشركائهم الإسلاميين الأكثر تنظيماً. تلاعبت الأنظمة بانعدام الثقة ذلك لإضعاف التحالفات الثورية. وتعود جذور الانقسام الليبرالي-الإسلامي، في كلا البلدين، إلى هزيمة تحول دستوري قديمة منذ قرن مضى. فقد نشأت أول وآخر الحركات الدستورية الليبرالية الجماهيرية في العالم العربي بعد الحرب العالمية الأولى للتخلص من الحكم الأجنبي ولتأسيس ديمقراطية دستورية. كسر الاحتلال الأجنبي تحالف المحافظين الدينيين والليبراليين العلمانيين، وقوض قاعدتهم الشعبية.

إن فشل عملية الانتقال الديمقراطي في سوريا ومصر خلال سنتي 1919-20 لم يحدث بسبب المعارضة داخل البلدين ولكن بسبب الاحتلال الأجنبي: إذ تواطأت بريطانيا وفرنسا لتدمير المملكة العربية السورية خشية أن يؤدي وجود نموذج ديمقراطية عربية إلى تهديد حكمهم في العراق وفلسطين وشمال أفريقيا. وبالمثل قوض البريطانيون، في مصر، المطالب الدستورية التي طرحتها ثورة 1919 من خلال هندسة عملية صياغة دستور فوقية بينما كان زعيم الثورة، سعد زغلول في المنفى.

كانت سوريا الكبرى، دائماً وأبداً، موطناً لمجموعة متنوعة من الناس. كان معظم سكانها البالغ عددهم 3.5 مليون نسمة في عام 1919 يتحدثون العربية، لكن الكثير منهم كانوا يتحدثون التركية والكردية والأرمنية والعبرية كلغاتهم الأم. وكان أكثر من نصفهم من المسلمين السنة الناطقين بالعربية الذين عاشوا جنباً إلى جنب مع عدد كبير من المسيحيين واليهود والمسلمين المنتمين إلى طوائف مختلفة مثل الدروز والعلويين. وبلغ تعداد مدينة حلب، أكبر المدن الواقعة أقصى الشمال، بعد الحرب 300000 نسمة، نسبة عالية منهم كانوا من الناطقين بالتركية ومن الأرمن، وجاء الأرمن كلاجئين من الإبادة الجماعية في زمن الحرب. إلا أن نخب المدينة كانوا لا يزالون يعتبرون أنفسهم عثمانيين وغير متصلين مع كونهم سوريين وسيستمر ذلك لسنوات.⁹ وكما هو الحال في جميع الأراضي التي هزمت فيها الإمبراطوريات العثمانية والروسية والنمساوية-المجرية، شهدت سوريا الكبرى عملية معقدة من تنظيم الأوضاع ما بعد الإمبريالية تحت ضغط مداولات مؤتمر باريس للسلام، والذي من المفترض أن تُمنح هذه البلاد على أساسه الاستقلال كحول قومية.

وعلى الرغم من أن فيصل كان قد دعا إلى طرد الأتراك، إلا أنه فعل ذلك بنية تخليص سوريا من عملاء العدو، وليس بهدف الإقصاء العرقي.

لا يزال ميراث الأحداث التي وقعت منذ قرن من الزمان - ظهور حركات إسلامية قوية مناهضة لليبرالية وصياغة دساتير ميسرة ومقيدة - يعرقل الانتقال إلى سياسات أكثر ديمقراطية وإدماجاً وتعددية في سوريا ومصر اليوم. وعلى الرغم من أن هذا الإرث التاريخي بعيد عن كونه العقبة الوحيدة أمام هذا التحول، إلا أنه لا يمكن تجاهله. بل يجب على الأكاديميين والسياسيين على حد سواء، مواجهة ذلك التاريخ إذا كان مقدراً للجانبين أن يجتمعا يوماً، بشكل مثمر، على طاولة مفاوضات.

الدستور السوري لعام ١٩٢٠: عدم الاحتمالية والإدماج

بطول الوقت الذي استسلمت فيه الإمبراطورية العثمانية لقوى الحلفاء في أواخر أكتوبر 1918، كانت دمشق قد أعلنت تشكيل حكومة جديدة. أعلن الأمير فيصل بن حسين، زعيم الثورة العربية 1916-1918 وابن شريف مكة، في 5 أكتوبر تشكيل «حكومة عربية دستورية مستقلة تماماً لكل سوريا». وأعلن الحكم العربي على كامل سوريا الكبرى. (التي تضم اليوم سوريا ولبنان والأردن وإسرائيل / فلسطين)، كما وعد البريطانيون والده. وكانت العراق والجزيرة العربية ستكونان دولتين عربيتين في تحالف مع سوريا.⁸

⁸ أبو خليل ساطع الحصري، يوم ميسلون (بيروت: دار الاتحاد، 1965) 11-210

⁹ Keith David Watenpaugh, *Being Modern in the Middle East: Revolution, Nationalism, Colonialism, and the Arab Middle Class* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2006), 125, 129, 140-45.

ما قلته في جميع مواقف، بأن العرب هم عرب قبل موسى وعيسى ومحمد، إن الديانات تأمر في الأرض باتباع الحق والأخوة. لذلك، وعليه فمن يسعى لإيقاع الشقاق بين المسلم والمسيحي والموسوي فما هو بعربي»¹⁰

استجاب سياسيون من جميع أنحاء سوريا الكبرى لدعوة فيصل لإجراء انتخابات المؤتمر السوري العام في يونيو 1919. وقد قدم المؤتمر في الشهر التالي مسودة الدستور إلى لجنة التحقيق الأمريكية، التي أرسلها الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون لاستطلاع أسلوب الحكم الذي يفضله السوريون. أبلغت اللجنة مؤتمر باريس أن غالبية سكان سوريا يفضلون الاستقلال الكامل أو بوصاية أجنبية محدودة للغاية تحت الحكم العربي للأمير فيصل؛ مثلت الكنيسة المارونية وأتباعها في جبل لبنان الكتلة الرئيسية للمعارضة. على هذا الأساس، أوصى تقرير كينج-كرين بأن تحتفظ سوريا بوحدتها تحت انتداب أمريكي (وليس فرنسي) محدود. كما أوصت بأن يحتفظ لبنان بالحكم الذاتي داخل سوريا، وأن يتم الحد من الطموحات الصهيونية الساعية إلى إقامة وطن لهم على أرض فلسطين (التي يطلق عليها العرب جنوب سوريا).¹¹

لم ترحب بريطانيا وفرنسا أو حتى تعترفان بالتقرير. وفي خريف عام 1919، وسعت فرنسا

كان متحدثو التركية، بسبب ظروف استمرار الحرب، وعلى العكس من أقرانهم الناطقين بالعربية، ينظر إليهم -ربما بشكل ظالم- على أنهم مواليين للعثمانيين الذين كانوا لم يهزموا بعد في ذلك الوقت. وظلت الحدود بين سوريا وتركيا غير متفق عليها لعدة سنوات. وقدم فيصل وعوداً بأن الطبيعة العربية للنظام هي مصطلح استراتيجي جامع، يهدف إلى دعم مطالب الاستقلال السوري، وليس وسيلة لاستبعاد الناطقين بالكردية والأرمنية. لقد وعى فيصل ومستشاروه أن الحلفاء في مؤتمر باريس عرّفوا «الأمّة» التي تستحق الحكم الذاتي أنها شعب متجانس يعيش في أراضٍ متجاورة. كما طمأن فيصل غير المسلمين بأن مكانته كـ «ابن» شريف وسليل للنبي لن تجعل من سوريا دولة إسلامية - على عكس الإمبراطورية العثمانية، التي كان السلطان فيها هو أيضاً الخليفة، والقائد الروحي لجميع المسلمين السنة. ولقد أيد بطريك الروم الأرثوذكس وكبير حاخامات دمشق برنامج فيصل السياسي، بناء على تأكيدات بأن مجتمعاتهم ستكون محمية. في خطاب ألقاه في حلب في 11 نوفمبر 1918، عرّف فيصل العروبة كبرنامج سياسي للمساواة والإدماج. «أنا عربي، وليس لي فضل على عربي ولو بمثقال ذرة» كما تعهد وقال «أحض إخواني العرب، على اختلاف مذاهبهم بالتمسك بأهداب الوحدة والاتفاق، ونشر العلوم وتشكيل حكومة نبيض بها وجوهنا» وأضاف «إنني أكرر

¹⁰ الحصري، يوم ميسلون، 214.

¹¹ Andrew Patrick, *America's Forgotten Middle East Initiative: The King-Crane Commission of 1919* (New York: I.B. Tauris, 2015), 176-81.

هذه الحالة فيصل، لن يكون مقدساً. وسيقسم بالولاء لـ «الشرائع الإلهية» وليس الشريعة الإسلامية. ولن يكون الإسلام هو دين الدولة الرسمي. سيصبح الإسلام، وهذه هي التسوية التي تم التوصل إليها، الدين الرسمي للملك نفسه فقط.

في الواقع، فككت سوريا الإسلام قبل ثماني سنوات من قيام الجمهورية التركية المستقبلية بذلك. وشرح رئيس المؤتمر رشيد رضا سبب ذلك في مذكراته ومجلته. إذ كان هو الوسيط خلال هذه التسوية بين الليبراليين العلمانيين الذين أرادوا تأسيس جمهورية والمسلمين المحافظين الذين أرادوا حكماً يستند بشكل مباشر على الشريعة الإسلامية.¹² في النهاية، وعلى عكس تقريباً جميع الدساتير العربية اليوم، لم يذكر الدستور الشريعة الإسلامية أو الإسلام كدين رسمي.

ذهب المؤتمر السوري إلى ما هو أبعد من ذلك في سبيل مقرطة سوريا من خلال منح السلطة التشريعية سلطات أوسع من تلك التي منحها العثمانيون للمشرع. إذ ستكون الحكومة مسؤولة أمام المؤتمر، وليس أمام الملك. كما سيشرّف المؤتمر، وليس الملك، على نظام المحاكم/ النظام القضائي، بما في ذلك المحاكم الدينية. أما مشروعات القوانين فيمكن تقديمها من قبل المشرعين (أعضاء المؤتمر)، وليس فقط من قبل رئيس الوزراء، كما كان الحال في

من احتلالها للساحل في الوقت الذي انسحبت فيه القوات البريطانية جنوباً، تاركين فقط الأراضي السورية الداخلية بين حلب ودمشق تحت الحكم العربي. في ذلك الوقت بدأت القوتان العظمتان بالتفاوض سرّاً حول تقسيم سوريا الكبرى فيما بينهما.

تحت ضغط قبول الانتداب الفرنسي، أعلن المؤتمر السوري الاستقلال وصاغ دستوراً من 147 مادة في ربيع عام 1920. وقد غطت الصحافة الجدالات المحترمة، حول العديد من المواد. وقادت النخبة الدمشقية المحافظة حزباً معارضاً يضم ملاك الأراضي ورجال الدين وزعماء القبائل الذين تحذوا حزب فيصل. وهيمن على هذه النخبة الدمشقية شاباناً من مسؤولين عثمانيين سابقين وإصلاحيين دينيين مثل رضا، ناشر مجلة «المنار» واسعة الانتشار. ومع ذلك، فقد توصلوا إلى تسويات بشأن العديد من القضايا الخلافية، بما في ذلك دور الإسلام في الحكومة وحقوق الأقليات وتوازن القوى بين الملك والبرلمان وبين الحكومة المركزية والمحافظات.

في يوليو/ تموز 1920، قدمت الجمعية التأسيسية دستوراً كاملاً أسس للمملكة العربية السورية كـ «حكومة ملكية مدنية نيابية». وخلافاً للدستور العثماني لعام 1909 الذي حكم سوريا خلال الحرب، لم يكن الملك خليفة ولا قائد المسلمين. فالملك، الذي كان في

¹² محمد رشيد رضا، «دروس من حياة فيصل (6)»، المنار 34 (مايو/ أيار 1943:86-72).

وغادر العديد من الزعماء الدينيين النافذين في دمشق الغرفة غاضبين. توسط رضا مرة أخرى للوصول إلى تسوية -على أساس أن القانون الإسلامي لم يكن به التشريع الخاص بذلك. فالمسائل التي تخص المصلحة العامة ولا تتناول قضايا دينية بشكل مباشر يجب التعامل معها من خلال القانون المدني، لكن، ولسوء حظ النساء، فقد أشار رضا إلى أن المصلحة العامة هنا تتمثل في إبقاء المؤتمر متحدًا ضد الاحتلال الفرنسي المحتمل. فيجب على سوريا أن تبرهن على قدرتها على الحكم من خلال حكومة برلمانية حديثة من أجل أن تنتصر لمطالبها بالحكم الذاتي. إذا تم حل المؤتمر بسبب الخلافات، فسيثبت الفرنسيون حاجة السوريين إلى فرض نظام الانتخاب تحت وصاية عصبة الأمم. وعليه، اقترح رضا تنحية مسألة حق النساء في الانتخاب جانباً. فالسيادة هي المصلحة العامة المهيمنة في ذلك الوقت. ووافق محمد عزت دروزة على ذلك، مشيرًا إلى أن غالبية النواب قد وافقوا على أن للنساء حقوق متساوية وأن الشريعة الإسلامية لا تحظر حقهن في الانتخاب، لكن النواب، في الوقت نفسه، شاركوا رضا قلقه من أن المعارضة الشعبية التي يقودها خصومهم قد تقوض سلطة المؤتمر. وقاموا بتسوية المسألة مؤقتًا عن طريق استخدام ضمير محايد غير محدد للجنس

العهد العثماني. واضطر رئيس الوزراء، بعد كثير من الممانعة، إلى تقديم برنامج عمله ليتم إقراره بواسطة المؤتمر. حيث قام رضا بتذكير فيصل مجددًا بأنه في ظل الديمقراطية، فإن السلطة التنفيذية مستمدة من الشعب، وأن المؤتمر هو من يمثل الشعب.¹³

كما قلص الدستور من سلطات النخب بإلغاء الترشيح لعضوية مجلس الشيوخ مدى الحياة. معظم أعضاء مجلس الشيوخ كان يتم انتخابهم، ولمدة تسعة أعوام فقط. كما فقد مجلس الشيوخ حق مراجعة التشريعات التي أقرها مجلس النواب بسبب الانتهاكات المحتملة لحقوق الملك أو الدستور. كما منح المؤتمر، بسبب تأثره بالنموذج الفيدرالي للحكومة الأمريكية (وفي ثورة ضد الحكم العثماني المركزي)، سلطات فعلية للمقاطعات لإدارة ميزانياتها المحلية. وتناولت العديد من المواد انتخابات المجالس المحلية.

أثارت المواد المتعلقة بحق الانتخاب جدلاً حادًا وملهمًا. فقد وافق النواب على أنه يجب أن يكون لكل سوري أتم من العمر 20 عامًا على الأقل الحق في التصويت في الجولة الأولى من الانتخابات. ولكن عندما اقترح عدد من النواب حق النساء في التصويت، اعترض المحافظون، مدعين أن الشريعة الإسلامية لن تسمح بذلك.

¹³ محمد رشيد رضا، الرحلة السورية الثانية (10 ب)، المنارة، 22 (مايو/ أيار 1922): 390-96، و«دروس من حياة الملك فيصل (7)» المنار (يونيو/ حزيران 1934): 152-57.

الهنگارية، وليس العثمانية فقط) لتصبح دولاً قومية. واتسع استخدام السوريين للمصطلح في العقد الذي تلى ذلك، تحت الانتداب الفرنسي.¹⁶

توجد أدلة متفرقة فقط بخصوص رد فعل غير المسلمين على الدستور. وبشكل عام، دعم البطارقة الروم الأرثوذكس وأتباعهم النظام، بينما اتبع الكاثوليك الكنيسة المارونية في دعم الحكم الفرنسي. وفي صيف عام 1920، احتفظ فيصل في حكومته بوزيرين مسيحيين مخلصين للنظام هما فارس الخوري ويوسف الحكيم، بعد وقت قصير من 5 يوليو/ تموز، بعد أن تم تقديم الدستور بالكامل وموافقة المؤتمر عليه، قررت أغلبية المجلس الإداري لجبل لبنان الانضمام إلى الحكومة السورية. وكان حبيب اسطفان، شقيق البطريرك الماروني. وكان حبيب اسطفان، وهو كاهن ماروني بارز أدان الأتراك بسبب مجاعة الحرب، قد انضم بالفعل إلى حكومة فيصل، وقام بجولة في البلاد لصالح وزارة الثقافة والمعارف بوصفه متحدثاً حيويًا، وفي مايو/ أيار 1920 ألقى خطابًا مدته تسعين دقيقة في مدينة حماة المسلمة المحافظة، مناشدًا

في قانون الانتخاب بدلاً من الإعلان صراحة عن حق النساء في التصويت.¹⁴

إن الدرس الذي عرضه رضا في ذلك اليوم وفي مجلته - وهو أنه لا يجب على الشريعة الإسلامية أن تغطي جميع المسائل المدنية - سيضيع مع صعود الإسلاموية الشعبوية في الثلاثينيات. فلقد استشراف رضا أن الانقسام داخل المؤتمر السوري سيعرض المصلحة العامة الأساسية (وهي الدفاع عن السيادة والحكم الديمقراطي) للخطر. على النقيض من ذلك، سنجد أن الإسلاميين والليبراليين سينشقون خلال الانتفاضات العربية عام 2011.

كما استحدث المؤتمر السوري نظامًا جديدًا لضمان تمثيل الأقليات غير المسلمة في مجلسي الشيوخ والنواب، بمعدل تمثيل أعلى قليلًا من تمثيل المسلمين.¹⁵ كان استخدام مصطلح «الأقلية» جديدًا على اللغة العربية. وقد تم اشتقاقه من المصطلحات التي صاغها الأوروبيون في مؤتمر باريس للسلام عام 1919، إذ كانوا يقومون بتنظيم أوضاع العديد من الإمبراطوريات المهزومة (الروسية والنمساوية-

¹⁴ ماري ألمظ شهرستان، المؤتمر السوري العام 1919-1920 (بيروت: دار أمواج، 2000) 193-208، إعادة طبع تحقيق صحيفة الدفاع عن حق النساء في الانتخاب، أبريل/ نيسان 27، 1920. مذكرات محمد عزت دروزة 1887-1984، المجلد الأول (بيروت: دار الغدب الإسلامي، 1993). On Rida and public interest, see Dyala Hamzah, "From ʿilm to Sihafa or the Politics of the Public Interest (Maslahah): Muhammad Rashid Rida and His Journal al-Manar (1898–1935)," in *The Making of the Arab Intellectual: Empire, Public Sphere and the Colonial Coordinates of Selfhood*, ed. Dyala Hamzah (New York: Routledge, 2013), 90–127.

¹⁵ المواد 67, 88, 128 من دستور المملكة العربية السورية، حسن الحكيم الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية، 1915-1946 (بيروت: دار صادر، 1974)، 194-213.

¹⁶ Benjamin Thomas White, *The Emergence of Minorities in the Middle East: The Politics of Community in French Mandate Syria* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2012), 43–66.

كُتب الدستور السوري لعام 1920 من الصفر بروح تسودها الديمقراطية والمساواة، لكنه في الوقت نفسه لا يزال مديناً بالكثير للدستور العثماني الذي سبقه. إذ كانت الدساتير في المقام الأول بمثابة تكريس للسيادة القانونية، لكن كان ينظر لها أيضاً باعتبارها وسيلة للترويج لمواطنة أكثر إدماجاً وأقل إثارة للانقسام. وهدف الدستور العثماني على وجه التحديد إلى إعادة تشكيل وضع غير المسلمين باعتبارهم مواطنين كاملين بحقوق متساوية، لتحل هذه المواطنة محل الدلالة اللاحقة القديمة والتي وضعتهم في مكانة أدنى من للطبقة الإسلامية الحاكمة. فكان المواطنون عثمانيين أولاً؛ ثم مسلمين أو مسيحيين، أو يهود بعد ذلك، وانتقل هذا المبدأ إلى الدساتير السورية والمصرية ما بعد الإمبراطورية العثمانية. (فمثل الدستور السوري لعام 1920، لم يذكر الدستور المصري لعام 1923 الشريعة الإسلامية كأساس للتشريع).¹⁹

توقع مدحت باشا، المؤلف الرئيسي للدستور العثماني، أن يضمن الدستور «منح نعمة الحرية والعدالة والمساواة لجميع الأقوام المختلفة التي تتألف منها الدولة العثمانية دون استثناء،

زملاءه الوطنيين العرب دعم الحكومة والدفاع عن الحرية الوطنية ضد الهيمنة الفرنسية.¹⁷ بينما اتخذ البطريرك الماروني إلياس حويك موقفاً مخالفاً بشأن الحكم الفرنسي. وقد أعرب حويك عن صدمته لأن إعلان الاستقلال السوري في مارس 1920 شمل الساحل اللبناني. وأدان الإعلان بسبب «روحه المعادية للفرنسيين». وفي نوفمبر 1919، حصل على وعد من حكومة رئيس الوزراء الفرنسي جورج كليمنصو، بحق لبنان في الحكم الذاتي. أعادت الرسالة التأكيد على التزام فرنسا بحماية مسيحيي لبنان، الأمر الذي تعهدت به فرنسا بعد مذابح المسيحيين في عام 1860. وقد أكد الفرنسيون هذه الوعود في ربيع عام 1920، عندما قام وفد أرسله حويك بزيارة باريس.¹⁸

أسس الاحتلال الفرنسي لسابقة تخص لغة الحماية، وتميز «الأقليات» والطوائف، متحدياً بشكل مباشر جهود الدستوريين لتوحيد التنوع الكامل للأشخاص في نظام من الحقوق الدستورية المتساوية. ظهر هذا التوتر نفسه، كما هو مبين أدناه، في مصر إبان خضوعها للحكم البريطاني.

¹⁷ Malcolm B. Russell, *The First Modern Arab State: Syria under Faysal, 1918–1920* (Minneapolis: Bibliotheca Islamica, 1985), 81–85; فريد اسطفان، حبيب اسطفان: رائد من لبنان (بيروت دار لحد خاطر، 1983) 57–68، وترجمة الحكومة الفرنسية لخطاب 4 مايو/ أيار 1920، المنشور في جريدة الهدف في 6 مايو/ أيار 1920، أشكر جيمس جالين لمشاركته الوثيقة معي.

¹⁸ Memo on the proclamation by Congress, Maronite Church Archives at Bkerke, Lebanon, Hoyek Series: 038/026; letter from Clemenceau November 10, 1919, 036/026; and note from the Haut Commissariat de la République de la France en Syrie, May 20, 1920, 036/324.

¹⁹ Bernard Botiveau, "The Law of the Nation-State and the Status of Non-Muslims in Egypt and Syria," in *Christian Communities in the Arab Middle East: The Challenge of the Future*, ed. Andrea Pacini (Oxford: Clarendon Press, 1998), 112–16.

الرأي غير ممنوعة، وقد تكون مطلوبة إذا كان ذلك من مصلحة الأمة». وشعر رضا أن المتعصبين وحدهم هم من يمكن أن يصروا على ضرورة أن يكون الفقهاء الإسلاميون هم من يقررون الأمور الدنيوية مثل تحصيل الضرائب وإدارة المحاكم/ النظام القضائي. وأضاف «إن الزمان قد تغير وتغير العرف الذي بني عليه كثير من الأحكام، وحدثت للدولة والأمة مصالح وحاجات كثيرة، لم تكن في زمن الأئمة (...) فاضطررنا إلى أحكام تناسب حال زمننا» لنبقى أمة قوية تدرأ المفاسد.²¹

حاول فيصل والمؤتمر السوري، في عام 1920، إقناع الليبراليين الأوروبيين بأنهم قد تعلموا أساليب الحكم الحديثة أثناء خدمتهم في البرلمان وفي المكاتب الحكومية خلال العقود العثمانية الأخيرة. فلقد كانت الانتدابات، في النهاية، موجودة بسبب أن الشعوب «غير مستعدة بعد» للحكم الذاتي. فلقد كانت التسويات التي توصلوا إليها في صياغة الدستور مطالبة تاريخية بالسيادة واحترام ما وعد به وودرو ويلسون بأن يكون نظامًا عالميًا جديدًا. إن العواقب التاريخية المترتبة على تقويض ذلك الحكم الدستوري سوف يتردد صداها في عام 2011، عندما طالبت المقاومة العربية للديكتاتوريات، مرة أخرى، بدساتير ليبرالية ذات سيادة أمام كاميرات التلفزيون العالمية وعلى صفحات الفيسبوك. فلقد كانت السياسة المحلية في الشرق

فهذا ما تقتضيه سنة التحديث للهيئة الاجتماعية» نقل مدحت هذه المطالبات في عام 1878 إلى الرأي العام البريطاني، ساعياً إلى نيل دعمهم ضد التدخل والغزو الروسي. في ذلك الوقت، كما في عام 1920، كانت الدساتير هي محاولة للانضمام إلى الدول القومية الحديثة. وقام من خلفوا مدحت باشا بتعديل الدستور في عام 1909 في مواجهة الضغوط الأوروبية المتجددة.²⁰

لطالما دافع رضا عن الدستورية في مواجهة معارضة رجال الدين المسلمين المحافظين. وقد نشر رضا مقالاً عام 1909 ردًا على اعتراض هؤلاء على وجوب عدم إخضاع المسلمين للقوانين التي يصدرها مجلس تشريعي يضم مسيحيين ويهود. وطرح رضا، في مقاله، بأن مثل هذا المجلس التشريعي كان تعبيرًا عن الديمقراطية وأن الديمقراطية هي الشكل الوحيد للحكومة الذي يتوافق مع المبادئ الإسلامية. بينما يخالف الخيار الوحيد الآخر، وهو الديكتاتورية، الإسلام. وواصل رضا أنه حتى في عهد النبي أمر الله أن يقوم خبراء مؤهلين وليس فقط فقهاء إسلاميين بتدريس الشؤون الدنيوية والتعامل معها. وسيكون الدستور الذين هم بصدده إصداره متوافقاً مع الشريعة الإسلامية إذا كان ملتزماً بالمبادئ الإسلامية مثل العدالة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكتب رضا في مجلته «أن استشارة المسلمين لغيرهم ومشاركتهم في

²⁰ Midhat Pasha, "The Past, Present, and Future of Turkey," *The Nineteenth Century* 3 no. 16 (June 1878): 992.

²¹ محمد رشيد رضا، «الدستور والحرية والدين الإسلامي». المنار، 12، رقم 8 (سبتمبر/ أيلول 1909). 609.

بأن لديه الحق في حضور مؤتمر باريس للسلام كما حضره فيصل الثاني ممثلاً عن سوريا. بدلاً من ذلك، قام البريطانيون باعتقال سعد زغلول في مارس/ آذار 1919، واندلعت مظاهرات حاشدة. على إثر ذلك، في مدن عديدة. تظاهر كل من المسلمين والمسيحيين الأقباط، مطالبين بـ «مصر للمصريين!» واستقبل حزب الوفد، الذي كان يرأسه سعد زغلول توكيلات من كل من القساوسة المسيحيين وشيوخ المسلمين الذين كانوا يخطبون في منابر جامعة الأزهر العريقة. وحمل بعض المتظاهرين أعلاماً ظهر فيها الهلال الإسلامي والصليب القبطي. وأصبحت هذه الأعلام رمزاً لثورة 1919 في الذاكرة الجمعية المصرية.

ظهر حزب الوفد إلى الوجود من قواعد شعبية واسعة كما كان الحال مع القومية السورية. وطالب المصريون، كما فعل السوريون، بالاستقلال والمساواة في ظل حكومة دستورية. وقاد زغلول الحركة بنفس التفاؤل الذي كان لدى رشيد رضا وفيصل في سوريا. وقال: «من غير المحتمل على الإطلاق أن يخلق مؤتمر السلام، الذي يعقد لغرض إثبات احترام جميع الحقوق وإعطاء الحرية لجميع الأمم، هيمنة جديدة للأقوياء على الضعفاء».²³

الأوسط، كما لاحظ المؤرخ ل. كارل براون قبل عقود، دائماً شأننا عالمياً.²²

ثورة مصر الشعبية سنة ١٩١٩ الشعبية ودستورها النخبوي لسنة ١٩٢٣

قاد السياسي المصري الجماهيري البارز، سعد زغلول، المصريين، في نوفمبر/ تشرين ثاني 1919، في حملة للمطالبة بالاستقلال من خلال مؤتمر باريس. وقعت مصر تحت الاحتلال البريطاني عام 1882، وقامت بريطانيا وقتها بسحق ثورة دستورية شارك فيها سعد زغلول عندما كان شاباً. بقيت مصر - مجازاً - جزءاً من الإمبراطورية العثمانية حتى عام 1914. وعندما دخل العثمانيون الحرب ضد قوات الحلفاء، أعلنت بريطانيا رسمياً وضع مصر تحت الحماية. ودفعت المصريون ثمناً غالياً خلال الحرب، حيث عانوا من نقص الغذاء والتضخم رغم قيامهم بإنتاج المحاصيل لقوات الحلفاء. وتم تجنيد ما يقدر بمليون مصري للعمل بالسخرة في بناء الطرق والسكك الحديدية والعمل في الموانئ. وآمن سعد زغلول وآخرون كثر أن مصر قد نالت استقلالها مع الشعوب الأخرى المحررة من الإمبراطوريات المهزومة. وشعر سعد زغلول

²² L. Carl Brown, *International Politics and the Middle East: Old Rules, Dangerous Game* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1984).

²³ Speech by Zaghlul, in "Hamad Pasha El Bassel's Tea Party," January 16, 1919, British National Archives, Kew, FO 141/810/6; Ziad Fahmy, *Ordinary Egyptians: Creating the Modern Nation Through Popular Culture* (Stanford, CA: Stanford University Press, 2011), 136-66; and diary of A.S. Milner, December 21-22, 1919, Alfred Milner Papers, MS Milner dep. 97, Bodleian Library, Oxford University.

الاقتباس ترجمة عن الإنجليزية وليس كما ورد في خطاب سعد زغلول نظراً لتعذر الحصول على المصدر باللغة العربية

انقسم الأقباط حول الاستراتيجيات السياسية لإدماجهم في نظام ما بعد الحماية، فبينما دعت الكنيسة القبطية إلى حماية خاصة وتمثيل نسبي، انضم العديد من الأقباط العلمانيين إلى حزب الوفد لرفض تصنيفهم كأقلية قبطية. فقبول وضع الأقلية كان من شأنه أن يمنح هوية الأمة المصرية للمسلمين، باعتبارهم أغلبية. عندما كانت مصر لا تزال جزءاً من الإمبراطورية العثمانية، قبلت الكنيسة الوضع التقليدي لغير المسلمين كزبائن ذميين لدى الخليفة المسلم، لكن في ظل الوضع الراهن، طالب جيل جديد من الأقباط المصريين بوضعهم الجديد كمواطنين يتمتعون بحقوق متساوية. اتخذ الأقباط خياراتهم كرد فعل للأحداث التي وقعت خلال الحرب العالمية الأولى، عندما اضطهدت الحكومة العثمانية وقت الحرب بل وسمحت بالقتل الجماعي لغير المسلمين، وعبر بعض الأقباط الوفديين عن قلقهم للبريطانيين من احتمالية تعرضهم للغدر، مثلما حدث مع المسيحيين في عهد العثمانيين. لكن سعد زغلول طمأنهم، من خلال زيارته لبطرك الكنيسة القبطية في أعياد الميلاد (وهي الزيارة التي فرض البريطانيون رقابة لمنع تغطيتها)، وما إن أصبح رئيس وزراء،

وتوصل البريطانيون، بعد كثير من العنف، إلى تسوية تمنح مصر استقلالاً جزئياً سنة 1922. لكنهم حرصوا أن الدستور المصري الجديد لن يتم صياغته بواسطة جمعية تأسيسية منتخبة. إذ كتبه لجنة مختارة بعناية استُبعد منها سعد زغلول وأتباعه الجماهريين. وانتقد حزب الأحرار الدستوريين- المدعوم من بريطانيا- سعد زغلول لاستغلاله الرموز الدينية لحشد الدعم الشعبي.²⁴

كان الدستور وثيقة نخوية وعلمانية. لم تأت افتتاحيته على ذكر الإسلام؛ بدلاً من ذلك، أسست «حكومة ملكية وراثية وشكلها نيابي» لحكم المصريين الذين سيكونون «لدى القانون سواء. . . لا تمييز بينهم. . . بسبب الأصل أو اللغة أو الدين». وضمنت المادتان 12 و13 «أن حرية الاعتقاد مطلقة» وأن الدولة ستضمن حرية ممارسة الشعائر الدينية. وكان الملك ليحلف اليمين بالتمسك بالدستور وقوانين الأمة فقط، وليس القوانين الدينية، وكان التعليم الأولي إلزامياً للبنين والبنات. كانت الشؤون العسكرية والخارجية تحت سلطة دولة احتلال أجنبية، بريطانيا.²⁵

²⁴ Afaf Lutfi Al-Sayyid-Marsot, *Egypt's Liberal Experiment: 1922–1936* (Berkeley: University of California Press, 1977), 63–72; and James Whidden, "The Generation of 1919," in *Re-Envisioning Egypt 1919–1952*, ed. Arthur Goldschmidt Jr., et al. (New York: American University in Cairo Press, 2005), 30.

²⁵ "Royal Decree No. 42 of 1923 on Building a Constitutional System for the Egyptian State," trans. Joy Ghali, on behalf of International IDEA, accessed January 15, 2019, http://constitutionnet.org/sites/default/files/1923_-_egyptian_constitution_english_1.pdf; and "Dustur: A Survey of the Constitutions of the Arab and Muslim States," reprinted, with additional material, from *The Encyclopedia of Islam*, 2nd ed. (Leiden: E. J. Brill: 1966), 28–29. The constitution reserved control over security and foreign affairs to the British and granted the preponderance of power to the King. Zaghlul returned to Egypt a hero, but was unable to wield effective political power in a political system that only superficially appeared liberal and democratic.

تدمير الديمقراطية السورية العربية

قام المؤتمر السوري بقراءة وإقرار الدستور كاملاً في 5 يوليو/ تموز 1920. ثم تمت مناقشة مواد السبعة الأولى وتم إقرارهم كل على حدة خلال الأسبوع الذي تلا ذلك. في 14 يوليو/ تموز، أصدرت فرنسا إنذاراً إلى فيصل بقبول الانتداب الفرنسي أو مواجهة الغزو. وخلال هذا الوقت كانت النخب الدمشقية المحافظة (التي كانت قد انسحبت من النقاش حول حق المرأة في التصويت) والبطارقة المسيحيين قد بدأوا للأسف بالقيام بزيارات للبعثة الفرنسية.²⁶ بينما قام رجل الدين الإسلامي الشعبي، كمال القصاب، بحشد الطبقات العاملة في المدينة في مظاهرات كبيرة احتجاجاً على قبول الإنذار. كان القصاب قد دعا في وقت سابق، مارس/ آذار من نفس العام، إلى حكومة مدنية تقوم على السيادة الشعبية. إلا أن حركته الآن قد اتخذت طابعاً إسلامياً متزايداً.

عارض رشيد رضا والمؤتمر السوري، تحت الضغط الشعبي، قبول الإنذار. كان فيصل يؤكد دائماً أن الحرية تؤخذ ولا تمنح. ونظر رضا إلى الصراع من منظور عالمي، باعتباره معركة من أجل النظام العالمي الجديد المبني على حقوق

طمأنهم من خلال تعيين مسيحيين أقباط في مجلس الوزراء، وأصبح مكرم عبيد، السياسي القبطي، أميناً عاماً للحزب.²⁶

ومع ذلك، فإن سلطات زغلول كرئيس للوزراء تم تقويضها بسبب الانحياز الدستور نحو الملكية ودعم بريطانيا لخصومه النخبويين في حزب الأحرار الدستوريين. ساعد العديد من الأعضاء في صياغة دستور 1923. واعتقد الكثيرون بأن المصريين العاديين، غير المتعلمين وغير المطلعين على الليبرالية الأوروبية، لم يكونوا مستعدين بعد للمشاركة السياسية. كان سعد زغلول، مثل رشيد رضا، هو السياسي الجماهيري الذي تمكن من بناء ائتلاف شعبي لربط الفصائل الليبرالية والإسلامية. ومثل رضا أيضاً، أمل زغلول عبثاً في الحصول على دعم الليبراليين في أوروبا، وخاصة البرلمان البريطاني. وكما حدث مع رضا كذلك، قامت النخبة الليبرالية، المدعومة من الخارج، في بلاده، بإضعاف سلطته.²⁷

في هذه الأثناء، قام المستعمرون الأوروبيون في سوريا بقرصنة اللغة الليبرالية لعصبة الأمم الجديدة لتدمير الحكومة الديمقراطية الشعبية وفرض انتدابهم بالقوة.

²⁶ Vivian Ibrahim, *The Copts of Egypt: The Challenges of Modernisation and Identity* (New York; I. B. Tauris, 2013), 56-75, 80-81; Marius Deeb, *Party Politics in Egypt: The Wafd and Its Rivals, 1919- 1939* (London: Ithaca Press, 1979), 70-75; and "Interview with Simaika Pasha, Dec. 14, 1918" and "Ministry of Interior Memo, Jan. 11, 1919," both in British National Archives, Kew, FO 141/810/6.

²⁷ Charles D. Smith, *Islam and the Search for Social Order in Modern Egypt: A Biography of Muhammad Husayn Haykal* (Albany : State University of New York Press, 1983), 61-75.

²⁸ "Col. Cousse to High Commissioner, Beirut," July 15, 1920, Renseignement 696, Service Historique de l'Armée de terre (SHAT), Vincennes, SHD-GR4-H114-005.

النهاية، وجد «القصاب» ملاذاً لما سيصبح قريباً المملكة العربية السعودية.

صادر الفرنسيون ودمروا أرشيف المؤتمر السوري. وأعلن رئيس الوزراء أن «كل آثار حكم فيصل غير قانونية ويجب على حكومته أن تختفي»، كان ذلك خوفاً من أن يتم استخدام الوثائق من قبل السوريين لتعزيز المزاج المناهض للاحتلال الفرنسي في عصبة الأمم.³⁰ في غضون أسبوع واحد، رسم المفوض السامي الفرنسي خرائط لتقسيم الجزء التابع لهم من سوريا الكبرى إلى دول طائفية: «دولة ذات أغلبية مسيحية واحدة [لبنان] ودولتان مسلمتان [حلب ودمشق]». وأنشأوا منطقتين تتمتعان بالحكم الذاتي، واحدة على الساحل الشمالي تحكمها الطائفة العلوية وأخرى في الجنوب، مخصصة للدرز.

لم يكن رضا قد فقد إيمانه بعد بالمبادئ الليبرالية لسلام ما بعد الحرب. فبعد سنة، في عام 1921، سافر إلى جنيف مع وفد المؤتمر السوري الفلسطيني لتقديم استئناف إلى عصبة الأمم ضد الانتداب الفرنسي. وقدموا التماساً يجادلون فيه بأن الغزو الفرنسي قد خالف روح الانتدابات المنصوص عليها في ميثاق عصبة

الشعوب؛ بالتالي كان الاستسلام سيكون خضوعاً للنظام الإمبريالي القديم. ما كان على المحك هنا، في رأيه وفي آراء الآخرين، هو مستقبل الديمقراطية في جميع أنحاء العالم، والقانون الدولي، ومصداقية عصبة الأمم.²⁹

لكن مع تقدم القوات الفرنسية باتجاه دمشق، قام فيصل بتجميد المؤتمر، وسجن القصاب، وقبل الإنذار. لم يجد ذلك نفعاً. إذ استمر الجيش الفرنسي في التقدم، متحججاً بذريعة تلو الأخرى. وانفجرت المدينة في تمرد عارم، احتشد فيه الرجال والنساء للحصول على البنادق والتوجه إلى المعركة. ووزعت الطائرات الفرنسية منشورات تحذر الدمشقيين من أنه سيتم عقابهم على أي عنف ضد المسيحيين. لم يستطع القادة السوريون تصديق أن حليفهم في الحرب العالمية الأولى كان الآن يوجه بنادقه إليهم. وانهار إيمانهم بالإنسانية الليبرالية وعالمية القانون الدولي. وعندما احتل الفرنسيون دمشق في 25 يوليو/ تموز، فر النواب من بيوتهم إلى ما سيصبح مستقبلاً دولاً منفصلة وهي لبنان وفلسطين وشرق الأردن وسوريا. واضطر الساسة البارزون إلى اللجوء إلى منافي أبعد: فهرب رضا إلى عائلته في القاهرة وتوجه فيصل إلى إيطاليا. وفي

²⁹ محمد رشيد رضا. «عاقبة الحرب العظمى»، المنار، 21 (أبريل / نيسان 1920) 337-44
تعذر الحصول على عنوان المقالة نصاً

³⁰ "Alexandre Millerand to Commandant Armée du Levant," July 29, 1920, Ministère des Affaires étrangères, Nantes archives, Fonds Beyrouth, Carton 2358.

³¹ Correspondance between Gen. Gouraud and Premier Millerand," August 2-7, 1920, in Documents diplomatiques français relatifs à l'histoire du Liban et de la Syrie à l'époque du Mandat: 1914-1946 [French diplomatic documents on the history of Lebanon and Syria in the Mandate period, 1914-1946], vol. II., e d. Antoine Hokayem (Paris: L'Harmattan, 2012), 567-89.

والشرق جميعاً»، وكتب لقرء مجلته: «قابلت لبيراليين في جنيف وفي أماكن أخرى» لم يؤمنوا بالتنشهر الذي يقوم به قادتهم. ضد المسلمين أو ادعاءاتهم «بحماية مسيحي الشرق من تعصبهم».³³ وتنبأ ميشيل لطف الله، الرئيس المسيحي للمؤتمر السوري الفلسطيني، كذلك بالحرب إذا وافقت عصبة الأمم على الانتداب الفرنسي في سوريا. وقال لصحيفة «نيويورك تايمز»: «من الواضح الآن أن الإمبرياليين في سوريا يسخرون من مبادئكم النبيلة، محولين الشعوب التي تحت الانتداب إلى مستعمرات مستعبدة».³⁴

ساعد المقال في إقناع الرئيس ويلسون بالتصريح المتأخر بنشر تقرير لجنة كينج كرين حول سوريا. ولكن، في يوليو/ تموز 1922، قبل ظهور التقرير في الصحافة صوت مجلس العصبة بالموافقة على الانتدابات. أصابت هذه الهزيمة رضا في مقتل، وقدم هو وولطف الله التماساً إلى جمعية العصبة. وقال رضا لقراءه في نوفمبر 1922 "إذا رفض الليبراليون الأوروبيون هذا الالتماس، أو كانوا غير قادرين على إقامة سلام بين الشرق والغرب، فإن القادة الوطنيين الشرقيين سوف يفهمون أن عصبة الأمم قد وافقت على أن تكون الأداة الأكثر شراً التي وجدت على الأرض، وستكون النتيجة تدمير أوروبا."³⁵

الأمم، الذي ينص على أن الانتدابات ينبغي إنشاؤها بموافقة الشعب. بدلاً من تقديم توجيهات محدودة ومؤقتة لشعب ذي سيادة، كانت فرنسا تحكم سوريا مثل مستعمرة محتلة.

وتحدث رضا إلى رئيس عصبة الأمم قائلاً «إن هذه الجمعية التي اقترح الرئيس ويلسون تأليفها من جميع أمم الحضارة لخير جميع البشر لا يليق بشرفها وشرف أممها وحكوماتها وشرف المبدأ، والغاية الموضوعين لعملها أن تكون آلة لدولتين استعماريتين، تكفل لهما استعباد من استوليتا عليه من الشعوب قبل الحرب، ومن تريدان الاستيلاء عليهم بعدها باسم الانتداب منها». وفي رسالة ثانية وقعها رضا باسم «الرئيس السابق للجمعية التأسيسية في دمشق»، ناشد رضا الوفد الفرنسي مباشرة في عصبة الأمم: «يجب على فرنسا أن تحرك أن سوريا تستحق الحرية والاستقلال، وأن الشعب السوري قادر على الحكم الذاتي. يجب على شعب البلاد أن يشكل حكومته، والتي يمكن لها أن تبرم معاهدة تحالف مع فرنسا».³² تعامل رضا كمواطن عالمي يستحق حق تقرير المصير الذي وعد به ويلسون.

خشي رضا من أن يؤدي احتلال الحلفاء للأراضي العربية إلى «الحروب في الغرب

³² "Letter to M. Gabriel Hanotaux," September 27, 1921, British National Archives, FO 141/552/1.

³³ محمد رشيد رضا. «الرحلة الأوروبية (5)»، المنار 23 (يوليو/ تموز 1922) 553-58. ترجم النص من الإنجليزية لتعذر الحصول على الاقتباس باللغة العربية

³⁴ "Syrians Threaten War on the French," New York Times, May 14, 1922, 3, <https://www.nytimes.com/1922/05/14/archives/syrians-threaten-war-on-the-french-cable-leagare-council-they-will.html>.

³⁵ محمد رشيد رضا. «الرحلة الأوروبية (7)»، المنار 24 (نوفمبر/ كانون ثاني 1922): 696-99. ترجمة النص عن الإنجليزية

بين أعيان المدن القوميين والقادة الدينيين القبليين والريفيين الموالين للفرنسيين. فالخلافت التي كانت ذات يوم مضمرة، والتي هدأتها وساطة رضا، انفجرت على الملأ خلال الانتخابات. فالنواب الدينيون الذين غادروا المؤتمر غاضبين خلال النقاش حول حق النساء في الاقتراع عام 1920 قد انتقلوا إلى المعسكر الموالي لفرنسا منذ ذلك الوقت. وكان زعيمهم هو رئيس الوزراء المعين من قبل فرنسا تاج الدين الحسني، وهو نجل إمام مسلم بارز. وقام الحسني بشن حملة ضد القوميين المنحازين إلى هاشم الأتاسي، رئيس وزراء فيصل الأسبق، زاعماً أنهم معادون للدين. وشن النشطاء الدينيون هجمات في الشوارع على النساء اللاتي كن يرتدين الزي الغربي، كما أذان الدعاة دعوات السماح للنساء بخلع الحجاب. ونظم نفس هؤلاء النشطاء أيضاً حملات ضد المدارس الفرنسية والتعليم المختلط.

تمكن القوميون الحضريون، لأنهم كانوا أكثر تنظيماً، من السيطرة على الجمعية التأسيسية بسهولة وعينوا الأتاسي رئيساً لها. وكان بإمكان القوميين العلمانيين وقتها تجاهل المحافظين حيث كانوا يشكلون عنصرًا صغيرًا نسبيًا على الساحة السياسية. (فقد بقي القصاب في المنفى حتى أواخر ثلاثينيات القرن الماضي). ونتيجة لذلك - وعلى النقيض من عهد رضا - أصبح المسلمون المحافظون الآن مستبعبدين إلى حد كبير من عملية صياغة الدستور. ورفض القوميون العلمانيون المصطفون خلف الأتاسي،

عندما أقرت عصبة الأمم بأن جميع الأجزاء العربية من الإمبراطورية العثمانية السابقة - باستثناء الجزيرة العربية - يجب أن تظل خاضعة للحكم الأوروبي، فقد وضعت العرب - عملياً - في فئة دنيا من الإنسانية، إلى جانب الآسيويين والأفارقة المستعقرين، الذين لا يستحقون، هم أيضاً على ما يبدو - حق تقرير المصير الذي وعد به ويلسون. لقد بين الدبلوماسيون والحملات التبشيرية الأوروبية بشكل جلي أنه إذا كان العرب يرغبون في الانضمام إلى الحضارة الحديثة، فعليهم أن يتخلوا عن دينهم الإسلامي. وتسبب الاستعمار بعد عام 1919 في خلق وقية بين الليبراليين والإسلاميين.

صعود الإسلام المناهض لليبرالية في سوريا ومصر

في عام 1925، اشتعلت سوريا في ثورة مسلحة. ولزم الفرنسيون عامين وحملة وحشية من القصف الجوي والمدفعي لقمع هذه الثورة. وكانوا يقومون بعرض جثث المتمردين في وسط مدينة دمشق، تمامًا كما كان يفعل الأتراك خلال الحرب العالمية الأولى. وافق القادة القوميون المهزومون أخيرًا، في عام 1928، على التعاون في حكم سوريا. لكن في انتخابات الجمعية التأسيسية الجديدة، الفصائل التي اتحدت خلال الثورة بدأت في الانقسام. عمق الانقسام السياسي الذي حاول رشيد رضا الحول دونه، خلال السنوات الأولى من العقد نفسه

أنه «لا تمييز بينهم في ذلك بسبب الدين أو المذهب أو الأصل أو اللغة»³⁷

يشبه الدستور السوري لسنة 1930 دستور مصر لسنة 1923 في الاحتفاظ بالسلطة على الشؤون العسكرية والعلاقات الخارجية لقوة أجنبية وفي حذف الإشارات إلى الشرائع الإلهية أو الإسلامية. غير أن الهيئة التشريعية السورية تمتعت بصلاحيات أكبر من نظيرتها المصرية.

وبنى الزعماء الإسلاميون في سوريا، رداً على إقصائهم السياسي، حركة معارضة واسعة تحدوا بها القوة السياسية للقوميين في الشوارع. وأجبر القوميون التابعين للأتاسي على تقديم تنازلات خارج الدستور. استهدف الشعبويون الإسلاميون أولاً وضع المرأة. فأشعلوا الشوارع بمظاهرات ضد مبادرات إصلاح قوانين الأحوال الشخصية، والمدارس العامة المختلطة، والتوسع في حقوق المرأة، وخاب أمل النساء اللواتي أملن في أن يعزز القوميون العلمانيون حقوقهن مرة أخرى، وبحلول عام 1930، غيرت الحركة النسائية أجندتها للتأكيد على دعمها لواجبات الأمومة في المنزل، بدلاً من حق الاقتراع.³⁸ وانسحب الوسطيون المعتدلون -

بكثير من الضغينة وقليل من الخوف، مقترحات القادة الدينيين في الجمعية التأسيسية، خاصة محاولتهم لإعادة الملكية.³⁶ وأصدرت الجمعية التأسيسية لسنة 1928، نتيجة لذلك، دستوراً يؤسس لجمهورية علمانية.

دعا الدستور الجديد، الذي تم تبنيه في نهاية المطاف في عام 1930 بعد أن حذفت فرنسا منه المواد التي كانت ستجردها من سلطتها وأعادت توحيد سوريا ولبنان، دعا إلى «جمهورية نيابية» بمجلس تشريعي واحد (حيث تم إلغاء مجلس الشيوخ). وسيتم انتخاب الرئيس من قبل مجلس النواب لمدة خمس سنوات. وكان على الرئيس أن يكون مسلماً - مثلما كان الحال الملك في دستور عام 1920 - وهو شرط اعتبره العلمانيون «عفا عليه الزمن» في عام 1928، ولكنه كان ضرورياً لتهدئة المشاعر العامة. لم يعد على الرئيس أن يقسم بالولاء لـ «الشرائع الإلهية»، كما فعل فيصل؛ بدلاً من ذلك، يقسم الرئيس «أنني أحترم دستور البلاد وقوانينها وأحفظ استقلال الوطن وسلامة أرضه». وتم تقوية المادة التي تؤكد على مساواة السوريين أمام القانون، المادة 6 لدستور عام 1928، لتضمن

³⁶ Philip S. Khoury, *Syria and the French Mandate: The Politics of Arab Nationalism, 1920-45* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1988), 251-65, 327-40; and Elizabeth Thompson, *Colonial Citizens: Republican Rights, Paternal Privilege, and Gender in French Syria and Lebanon* (New York: Columbia University Press, 2000), 136.

³⁷ "Constitution of 14 May 1930," in Helen Miller Davis, *Constitutions, Electoral Laws, Treaties of States in the Near and Middle East* (Durham, NC: Duke University Press, 1947), 263-76; and Khoury, *Syria and the French Mandate*, 340-48.

عزز دستور 1928 سلطة المشرع وتوسع في الحريات المدنية التي تم ذكرها في عام 1920. قدمت المادة 8 حماية المثل أمام القضاء للمعتقلين، الذين يجب إبلاغهم في غضون أربع وعشرين ساعة بالأسباب/ الاتهامات التي دعت إلى حبسهم أو توقيفهم. وتضمنت المواد 15 و 16 و 18 لغة أقوى حول خصوصية الاتصالات الهاتفية والبريدية، فضلاً عن حرية المعتقد والعبادة الدينية. المادة 21 تنص صراحة على أن التعليم الابتدائي إلزامي للبنين والبنات. ومع ذلك، لم يُمنح حق الاقتراع مرة أخرى إلا للرجال (المادة 36) وكانت لغة تمثيل الأقليات أقل تحديداً (المادة 37).

³⁸ Thompson, *Colonial Citizens*, 117-26.

لجذب أتباع لها. وبالتالي، فقد أهملت الحركة تركيز الإصلاحيين الأقدم على الدمج بين قيم الإسلام والمسيحية الأوروبية، وركزوا بدلاً من ذلك على الإسلام كبديل للحدثة الليبرالية التي تمارسها النخب. واتحد الإخوان مع المحافظين الدينيين ضد الليبرالية باعتبارها فساد أجنبي: فالتقدم والعدالة مصدرهما من الإسلام نفسه. وتكلم مؤسس جماعة الإخوان السوريين، الذي درس في القاهرة، بلغة سياسية يفهمها الناس العاديون: على النقيض من ذلك، كان الليبراليون يميلون منذ عام 1920 نحو النخبوية. واعتبر الإخوان في كل من مصر وسوريا أن منظمي العمال والشيوعيين هم منافسيهم الأساسيين في استقطاب الجماهير.⁴⁰

تُظهر مذكرات حسن البنا، مؤسس جماعة الإخوان المسلمين المصرية، الصلة المباشرة بين صعود الإسلاميين واستبعاد الأوروبيين للعرب من دائرة الدول المتحضرة ذات السيادة في مؤتمر باريس للسلام. فقد انضم حسن البنا مثل المواطنين العاديين في سوريا بعد الحرب، إلى المظاهرات المصرية المطالبة بالاستقلال الوطني في عام 1919. وعندما وصل إلى القاهرة في عام 1922 للدراسة في دار العلوم، وجد عالمًا غريبًا. فلم تهئ البيئة الوردية في مسقط رأسه الريفي لشوارع المدن المليئة بالأوروبيين والنخب المحلية الذين

الذي سمح وجودهم بالوصول إلى تسوية قبل الاحتلال الفرنسي، وسيطر الاستقطاب على السياسة السورية. وتم اجتذاب النخب الدينية الموالية لفرنسا، والتي تعاونت سابقاً مع الفرنسيين، باتجاه المعارضة الإسلامية من قبل شخصيات مثل القصاب، (وقد عاد القصاب من منفاه عام 1937 ليشكل جمعية العلماء). كان هدف القصاب، بعد سنوات المنفى في المملكة العربية السعودية، هو إقامة حكومة إسلامية - على عكس ما دعمه من التسويات التي توصل إليها رضا في عام 1920. وأطاحت حركته بالحكومة القومية العلمانية في العام التالي. وفي عام 1940، قام ناشط إسلامي باغتيال زعيم قومي آخر، وهو عبد الرحمن شهبندر، الذي كان، رغم تدينه الشخصي، حازماً في الفصل بين الدين والدولة. بعد ذلك بوقت قصير، اتحدت الجماعات الإسلامية المحلية تحت مظلة جماعة الإخوان المسلمين السورية الوطنية، مقتفين أثر حركة موازية في مصر.³⁹

جذور الإخوان المسلمين المناهضة للاستعمار

اختلفت حركة الإخوان المسلمين عن حركات الإصلاح الإسلامي إبان العهد العثماني. إذ لم تكن حركة مثقفين نخبوية، بل كانت حركة جماهيرية قامت بتبسيط الأفكار حول الإسلام الحديث

³⁹ Itzchak Weismann, "The Invention of a Populist Islamic Leader: Badr al-Din al-Hasani, the Religious Educational Movement and the Great Syrian Revolt," Arabica 52, no. 1 (2005): 109-39; Hasan al-Hakim, Abd al-Rahman al-Shahbandar: Hayatihu wa Jihaduh [Abd al-Rahman al-Shahbandar: His Life and Struggle] (Beirut: Dar al-Mutahida lil-Nashr, 1985), 231-32; Khoury, Syria and the French Mandate, 584-89; and Thompson, Colonial Citizens, 148-54, 205-10, 261-70.

⁴⁰ Umar F. Abd-Allah, The Islamic Struggle in Syria (Berkeley, CA: Mizan Press, 1983), 88-101.

أسس البنا جماعة الإخوان المسلمين في عام 1928 في الإسمايلية لاستعادة الحياة الإسلامية، في مواجهة صريحة للنفوذ الليبرالي الأوروبي. وجاء أتباعه من الطبقات الاجتماعية المتوسطة التي كانت مستبعدة من المناصب العليا ومن مجتمع النخبة على وجه التحديد بسبب عدم كفاية إتقانها لقواعد السلوك الاجتماعي الأوروبية. كما أن رسالته وجدت صدى عند المسلمين المصريين الذين شعروا أن روحانياتهم الجماعية تتعرض للهجوم. وهزت البلاد في هذه الفترة سلسلة من الجدالات بسبب سعي المبشرين البروتستانت من أوروبا والولايات المتحدة لتنصير السكان المحليين. إذ كان يُنظر إليهم على أنهم جنود لعالم مسيحي معادٍ، وتم التعامل مع منشوراتهم في البرلمان والصحافة على أنها إهانة للإسلام وليس باعتبارها حرية شخصية. وعززت مطالبات المبشرين بحكومة علمانية فكرة أن الليبرالية كانت معادية للإسلام ولسيادة الدول الإسلامية.⁴² لقد ظهر الإخوان المسلمون إلى الوجود من نفس الممارسات الاستبعادية والمحتقرة للآخر، التي قوضت العالمية الليبرالية واعتبرت العرب والمسلمين غير مستحقين للاستقلال الوطني في مؤتمر في عام 1919.

كان الإخوان في البداية أقل رفضاً لليبرالية وكانوا يسعون لتحقيق حدثة أصيلة للمتدنيين

يلبسون لباساً أوروبياً. تعلم البنا على يد القادة الدينيين في بلدته؛ لكن التعليم في الجامعة الوطنية الجديدة كان علمانياً بشدة. كتب البنا عن ذلك قائلاً أن النخب الليبرالية «ثارت على الدين وحاربت التقاليد الاجتماعية». وباسم الحرية الفردية، روجوا لـ «موجة من الإلحاد والإبادة». وانقسم الطلاب إلى معسكرين متعاضدين، نخويين احتضنوا الأفكار الحديثة، والآخريين الذين ظلوا جاهلين.

عندما تولى البنا أول وظيفة تدريس له في مدينة الإسمايلية، الواقعة على قناة السويس، شعر بالصدمة عندما وجد أسماء الشوارع مكتوبة باللغة الفرنسية، وعندما وجد المصريين الناطقين بالعربية مكومين في المناطق العشوائية، معزولين عن الجانب الثري من المدينة حيث كان يعيش الموظفون الأوروبيون العاملين بشركة قناة السويس. وكتب في مذكراته «لقد كنت أشعر بألم شديد لرؤية هذا الوضع في البلاد، كنت متألماً لهذا أشد الألم فها أنذا أرى أن الأمة المصرية العزيزة تتأرجح حياتها الاجتماعية بين إسلامها الغالي العزيز، الذي ورثته وحمته، وألفته وعاشت به واعتز بها أربعة عشر قرناً كاملة، وبين هذا الغزو الغربي العنيف المسلح المجهز بكل الأسلحة.»⁴¹

⁴¹ مذكرات الدعوة والداعية: الإمام الشهيد حسن البنا: متاحة على الإنترنت

https://www.ikhwanwiki.com/index.php?title=الدعوة_والداعية.pdf 63-65 ص

⁴² Jeffrey Culang, "The Sharia Must Go: Seduction, Moral Injury, and Religious Freedom in Egypt's Liberal Age," *Comparative Studies in Society and History* 60, no. 2 (2018): 446-75; and Beth Baron, *The Orphan Scandal: Christian Missionaries and the Rise of the Muslim Brotherhood* (Stanford, CA: Stanford University Press, 2014), 117-34.

تبنى نموذج الشرق للعدالة قائلاً «وإنما أهلك الأمم الترف، وإنما زلزلت أوروبا المتع والمطامع» ونصحه «فكونوا أول من يتقدم باسم رسول الله بضرورة الدواء من طب القرآن لاستنقاذ العالم المعذب المريض».⁴⁴ بالنسبة للبنا، مثله في ذلك مثل المفكرين اللاحقين المناهضين للاستعمار، الادعاء أن القيم الأوروبية قيم عالمية ساعد في خداع الأفراد المستعمرين لقبول الوصاية الإمبريالية. وتمثل بعض العناصر الواردة في نص البنا إشارات مبدئية للحجج المناهضة للاستعمار التي قدمها فرانس فانون في الجزائر بعد عقد من الزمن.

كانت عواقب ذلك على السياسة المصرية عميقة. لم يرفض البنا على الفور النظام العلماني الذي أنشأه دستور 1923؛ بدلاً من ذلك، دعا فقط إلى مراجعة التشريعات لضمان توافقها مع الشريعة الإسلامية. حتى أنه حاول الترشح للبرلمان، لكن الحكومة أعاقته ذلك عن طريق تهديده وتزوير الانتخابات. عزز البنا انتقاده لسياسات الأحزاب كما عزز ترويجه للإسلام بوصفه الأيديولوجية الشرعية الوحيدة.⁴⁵ لكن وهج الوحدة الوطنية لثورة 1919 كان قد خبا. وكما كان يخشى الأقباط، فقد دفع

العاديين. وروج البنا والإخوان لشكل حيوي وفعال من الإسلام في مواجهة للإسلام التجريدي والأكاديمي الخاص بنخب ملاك الأراضي الذين احتضنوا (واستفادوا) من الاحتلال البريطاني. لم تتجاهل دعاية الإخوان جميع عناصر الحياة الحديثة، لكنها قامت بشيطنة الغرب باعتباره تهديداً للإسلام الإنساني. لم يستهدف النشطاء المسلمون الإمبريالية البريطانية فحسب، بل استهدفوا أيضاً حملات التبشير المسيحية التي غمرت البلاد بعد عام 1918. وركزت البروجاندا الخاصة بهم (كما كان الحال في مراثيات رضا في مجلته) على إذلال العالم الإسلامي على أيدي المستعمرين الأوروبيين. ووفقاً لهم لم تكن العدالة الاجتماعية ممكنة إلا من خلال احتضان قيم الإخاء والمساواة بين الإسلام. كتب البنا أن النخب التي أسرتها السيارات السريعة والبدلات المستوردة كانوا «الأعداء الرئيسيين لهذه الدعوة الإسلامية».⁴³

وجاء المثال الأوضح على انصراف الإخوان عن النداءات العالمية لليبرالية الأوروبية في رسالة مفتوحة وجهها البنا إلى ملك مصر فاروق في عام 1936. فعلى عكس رضا في 1920-1921، لم يشير البنا إلى الوضعية الأفضل لليبراليين الأوروبيين. وحث الملك بدلاً من ذلك على

⁴³ Brynjar Lia, *The Society of the Muslim Brothers in Egypt* (Reading, UK: Ithaca Press, 1998), 72–86; and Baron, *The Orphan Scandal*.

⁴⁴ حسن البنا، رسالة نحو النور، 1936 Hassan al-Banna, "Nahwa al-Nur," in his *Majmuat Risail al-Imam al-Shahid Hasan al-Banna* ["Toward the Light" in his *Collection of Letters by the Martyred Imam, Hasan al-Banna*] (Beirut: Dar al-Nahhar, 1965), 190–91. Translated with an incorrect original date (1947 instead of 1936) in *Five Tracts of Hasan al-Banna* (1906–1949), trans. Charles Wendell (Berkeley, CA: University of California Press, 1978), 124–25.

⁴⁵ Elizabeth F. Thompson, *Justice Interrupted: The Struggle for Constitutional Government in the Middle East* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2013), 150–76.

ولقد كان البنا مخلصاً بشدة لمجلة رضا، المنار، حتى أنه أخذ على عاتقه نشرها بعد وفاة رضا في عام 1935.⁴⁷

كان التزام رضا بالليبرالية الإسلامية قد بدأ يضعف في الوقت الذي قابله فيه البنا. لم يكن الأمر قطيعة مفاجئة أو كاملة. فبعد نشر انتقاداته لليبراليين الأوروبيين في عام 1922، كتب رضا كتاباً عن إعادة تأسيس الخلافة الإسلامية. وقال إن الخلافة يجب أن تكون موجودة في دولة ذات سيادة وأن تتواجد جنباً إلى جنب مع الديمقراطية التمثيلية. وأهدى الكتاب إلى «الشعب التركي الشجاع» وإلى الخلافة العثمانية، باعتبارها حصناً ضد استعباد المسلمين من قبل الصليبيين وباعتبارها مدافعاً عن العدالة ضد الاستبداد.⁴⁸ إلا أن الجمهورية التركية قامت بإلغاء الخلافة بعد عام واحد من ذلك التاريخ. وقام الرئيس مصطفى كمال أتاتورك بتنفيذ إصلاحات لإلغاء الشريعة الإسلامية وتفكيك الإسلام كدين للدولة.

شعر رضا بالغدر. وتجدد أمله، لفترة وجيزة، في أن يحقق المسلمون سيادة جديدة عندما اندلعت الثورة في سوريا عام 1925. وقد قدم رضا والمؤتمر السوري الفلسطيني الدعم للثورة في سوريا، بما في ذلك تمويلات نقدية

ارتباط المسيحيين بالمحتل الأوروبي بعض الأحزاب السياسية إلى تبني أجندات طائفية تقوض اللغة العالمية للحقوق الليبرالية. وفي الوقت نفسه، سعت الملكية في مصر أيضاً لتعزيز نفوذها من خلال تبنيها لرجال الدين الإسلامي. في أوائل ثلاثينيات القرن العشرين، حصل البنا على دعم برلماني لزيادة التعليم الديني (الإسلامي) في المدارس الحكومية، التي كفت بالتالي عن توظيف الأقباط. مع توسع نظام المدارس الحكومية، تخرج عدد متزايد من المسلمين ليجدوا أن الأقباط، الذين خصهم البريطانيون بالامتيازات، يسيطرون على قطاع الخدمة المدنية. وارتكب جناح عنيف من جماعة الإخوان المسلمين، خلال وقت لاحق من نفس العقد الزمني، هجمات عنيفة على غير المسلمين. وتحول الخطاب العام من الليبرالية إلى الإسلام.⁴⁶

ميراث رشيد رضا الملتبس

كان رشيد رضا شخصية محورية في ربط تحولات السياسة الإسلامية في كل من سوريا ومصر. فكان البنا منتظماً في حضور محاضراته في القاهرة في منتصف العشرينات. وأشار البنا أن رضا كان مصدر إلهام له لتأسيس جماعة الإخوان المسلمين كمنظمة فاعلة، خلافاً للجماعات الأكاديمية والخيرية الخاملة.

⁴⁶ Whidden, "Generation of 1919," 35–41; Ibrahim, Copts of Egypt, 75–98; and Smith, Islam and Search for Social Order, 89–108.

⁴⁷ Lia, Society of Muslim Brothers, 56–57, 97.

⁴⁸ Mahmoud Haddad, "Arab Religious Nationalism in the Colonial Era: Rereading Rashid Rida's Ideas on the Caliphate," Journal of the American Oriental Society 117, no. 2 (1997): 270–76; and Al-Shaykh Muhammad Rashid Rida, al-Khalifa (Cairo: al-Zahra al-'Alam al-'Arabi, 1988). Originally published in 1922.

الشعوب المسلمة ضد هيمنة القوى الغربية». خشي البريطانيون من أن تثير الجمعية قوى المعارضة في بلاد فارس وأفغانستان؛ وكما فعل الفرنسيين في سوريا، نظر البريطانيون إلى المسلمين الذين أصروا على حقوقهم في العالم الجديد بوصفهم متعصبين وإرهابيين. لقد شجعت الجمعية، في الواقع، على الاتصال السياسي والتبادل الثقافي، وتأمين الشرق كحضارة لها وضعها الخاصة. لكن بعد بضعة سنوات، استقال رضا عندما سيطر الليبراليون العلمانيون على مجلة الجمعية.⁵¹

كان رضا أيضًا مشاركًا بارزًا في مؤتمر القدس الإسلامي عام 1931، والذي كان أكبر تجمع إسلامي منذ المناقشات التي تلت سقوط الخلافة في عام 1924. وتوافق المشاركون في المؤتمر من جميع أنحاء العالم الإسلامي، بما في ذلك روسيا والهند والبوسنة وشمال أفريقيا. وشاركوا فيما بينهم قلقًا إسلاميًا مشتركًا بخصوص الآثار الدينية في القدس، التي تعتبر ثالث مدينة مقدسة في الإسلام. وترأس رضا جلسة حول الإصلاح الإسلامي والتعليم، حيث اقترح منهجًا مبسّطًا وموحدًا للطلاب المسلمين في جميع أنحاء العالم بغض النظر عن المنطقة أو الطائفة. واعتبر رضا

من ملك الجزيرة العربية الجديد، ابن سعود. بعد فشل الثورة السورية عام 1925-1927، دعم رضا بشكل أكبر ابن سعود، والذي كان الحاكم المسلم الوحيد لحولة ذات سيادة في العالم وهو أيضًا خادم الحرمين الشريفين، أقدس المواقع في الإسلام. لم يتبن رضا بشكل كامل التزمت الوهابي لحكومة ابن سعود، لكنه كان مدركًا لقدرتها على توحيد المسلمين ضد هيمنة الأوروبيين الساحقة. كانت العدالة، بالنسبة لرضا، ممكنة فقط بشرط وجود السيادة الكاملة.⁴⁹ انفصل رضا، بحلول عام 1927، عن شركائه العلمانيين القوميين والمسيحيين في المؤتمر السوري الفلسطيني الذين سعوا إلى الوصول لتسوية مع البريطانيين والفرنسيين. فيما عزز فصيلة السياسي علاقاته بابن سعود.⁵⁰

في الوقت نفسه، تخلى رضا تدريجيًا عن إيمانه بتوافق القيم بين الشرق والغرب. ونظرًا لتأثير رضا الواسع في العالم الإسلامي من خلال مجلته، فقد تابعت الاستخبارات البريطانية أنشطته السياسية في القاهرة عن كثب. وأفادوا في عام 1926، على سبيل المثال، أن رضا استخدم مجلته كوسيلة لتسهيل التواصل بين ابن سعود والتونسيين. كما أسس جمعية الرابطة الشرقية كمنظمة إسلامية «لتوحيد

⁴⁹ من رضا إلى أرسلان، أكتوبر / تشرين أول 29، 1925،

في أمير شكيب أرسلان، السيد رشيد رضا أو إزاء أربعين سنة (القاهرة: دار الفضية، 2006) 30-324

⁵⁰ "Neville Henderson to Austen Chamberlain," November 7, 1927, in British National Archives, Kew, FO 141/810/6.

⁵¹ "Report from the French Ambassador," December 30, 1925, transmitted January 11, 1926, and "Founding of Rabita Sharqiya in Cairo 1926-28," in British National Archives, Kew, FO 141/671/4 and FO 141/795/6; Israel Gershoni and James P. Jankowski, Egypt, Islam, and the Arabs: The Search for Egyptian Nationhood, 1900-1930 (New York: Oxford University Press, 1986), 60-63, 264-67; and Reinhard Schulze, A Modern History of the Islamic World, trans. Azizah Azodi (New York: I. B. Tauris, 2000), 65-74.

بالكتاب الذي يحظر الطغيان وجميع أشكال الفساد الأخرى»، كما كتب أن الإسلام يحظر العدوان والحرب من أجل تحقيق مكاسب مادية، كما يرتكبها الأوروبيون: «وإن من المعلوم اليقيني أيضاً أن الدول الكبرى لشعوب هذه الحضارة أشد جنابة عليهم وعلى الإنسانية - من جنابتهم على أنفسهم - بإغرائها أضغان التنافس بينهم، وباستعمالها جميع ثمرات العلوم ومنافع الفنون في الاستعداد للحرب العامة التي تدمر صروح العمران التي شيدتها العصور الكثيرة، في أشهر أو أيام معدودة، وتفني الملايين فيها من غير المحاربين كالنساء والأطفال»⁵⁴.

يوضح نص رضا انفصاله عن النماذج الأوروبية ولكن ليس انفصاله التام عن المبادئ الليبرالية. لقد قدم رضا الإسلام كبديل لهندسة ويلسون للسلام، التي انهارت أولاً في الشرق الأوسط ولاحقاً، في عام 1934، في العالم بأسره. وأصر على أن الإسلام دعا إلى الإنسانية المشتركة والمساواة لجميع الشعوب، ونبذ التسلسل الهرمي العنصري الذي تسبب في الحرب في أوروبا والتي أفسدت عصبة الأمم. وكتب في كتابه «فإن إصرار الإفرنج على الكبرياء بجلدتهم البيضاء واحتقارهم للسود والحمير والصفير

أن التعليم الموحد، واستمرار وجود المؤتمر الإسلامي، سيكونان مهمين في بناء الأخوية العالمية للمسلمين التي دعا إليها لمدة خمسة وثلاثين عامًا»⁵².

العودة إلى المبادئ الدينية

كان التحول في توجهات رضا أوضح ما يكون في كتابه الرئيسي الأخير، الوحي المحمدي، الذي نشر في عام 1934. لقد كان دفاعاً صادقاً عن رسالة النبي محمد ضد انتقادات الأكاديميين المستشرقين الأوروبيين والمبشرين المسيحيين. وطرح رضا بأن تنزلات الوحي على النبي في القرن السابع كانت معجزة إلهية وليست تهديداً. ولم تعارض هذه التنزلات أو تتناقض مع معتقدات اليهود أو المسيحيين. بدلاً من ذلك، فقد جسد الوحي الإسلامي رسائل أنبياء المسيحية واليهودية في أنقى صورها. وأدان رضا المتعصبين الذين افترضوا أن من حقهم إجبار الآخرين على اعتناق الإسلام. واستشهد بالقرآن «لا إكراه في الدين»⁵³.

وظل رضا مؤمناً، على عكس المخاوف البريطانية والفرنسية، أن الإسلام كان دين صالح وتسامح. في الواقع، اقترح كتابه الإسلام كبديل عن الويلسونية، كطريق إلى السلام العالمي. «وهكذا، فإن حل مشاكل العالم هو الإيمان

⁵² رشيد رضا، «المؤتمر الإسلامي العام في القدس» الجزئين 2 و3، المنار 32 (مارس/ آذار 1932) و (أبريل/ نيسان 1932) <http://shamela.ws/browse.php/book-6947/page-4172> and <http://shamela.ws/browse.php/book-6947/page-4182>; and Basheer M. Nafi, "The General Islamic Congress of Jerusalem Reconsidered," The Muslim World 86, no. 3-4 (1996): 243-72.

⁵³ محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي (1934)
⁵⁴ المصدر السابق.

ارتفع في هذا المجمع الإسلامي الحافل، كما ترتفع الآن رنات الأجراس والنواقيس الشرقية العربية في الأقطار الشرقية العربية، فتمتزج بأصوات المؤذنين، داعية إلى التآخي، إلى التضامن، إلى التكاتف، إلى التعاون في سبيل القومية العربية، في سبيل الأوطان الذبيحة!! وأضاف الجاماتي أنه ربما اعتبر المصريون رضا كزعيم إسلامي عظيم، لكنه كان أيضًا صديقًا للمسيحيين وكافح معهم من أجل أمتهم المشتركة، « فقد عاد إلى سورية بعد الحرب

العظمى مباشرة، ونظرًا إلى مكانته السامية في النفوس، انتخبه السوريون رئيسًا لمؤتمرهم الوطني، الذي اجتمع في دمشق سنة 1919، وقرروا إعلان استقلال سوريا كدولة عربية». يتذكر جاماتي أنه «كان لآراء السيد محمد رشيد رضا ونصائحه وإرشاداته، فضل كبير في نجاح تلك الحركة المباركة.. ولكن الأقدار لم تلبث أن قلبت لسورية المجاهدة الناهضة ظهر المجن».⁵⁷

الدساتير اللاحقة

كما تشير مذكرات رضا والبننا، فإن إقصاء وإخضاع المسلمين في مؤتمر باريس للسلام وبعد ذلك في عصبة الأمم، ظل ذكرى أليمة بين أولئك الذين شهدوا صعود السياسة

وهضمهم لحقوقهم، واستباحتهم لظلمهم، لمن أكبر العار على حضارتهم».⁵⁵

توفي رضا في أغسطس 1935 عن عمر يناهز السبعين، أظهر تأبينه التحول الصعب، لكن الحتمي، الذي حدث في السياسة منذ عام 1920. فلقد ألقى المناضل القومي السوري في المنفى والذي كان جزءاً من حكومة فيصل، عبد الرحمن شهبندر، كلمة أثناء التأبين. كان شاهبندر قد درس العلوم الدينية وكان يستخدم العبارات الإسلامية في خطبه. لكنه كان مؤمناً إيماناً راسخاً بفصل الدين عن الدولة، وكان يؤمن أن رضا كان قد فعل ذلك أثناء وجوده في المؤتمر السوري. وفي كلمته، أثنى على تفاني رضا في النهضة الدينية والوطنية، على الرغم من «تآمر الحاقدين على التجديد الديني والحريّة والدستور عليه». وقال الشهبندر في كلمته أن رضا أظهر أنه لا يوجد أي تناقض بين العلم والدين، أو بين الدين والديمقراطية، لكن جمهور رجال الدين من المستمعين كانوا قد انصرفوا بالفعل بعيداً عن هذا الرأي.⁵⁶

وتحدث بعد ذلك حبيب جاماتي، صحفي مسيحي من لبنان، ووجه كلمته إلى عميد الأزهر (المعروف أيضًا باسم شيخ الأزهر)، والذي قال أن رضا واجه ثلاثة خصوم رئيسيين: العلمانيين وغير المسلمين والمسلمين التقليديين. بدأ جاماتي كلمته قائلاً «ويشرفني أن يكون صوتي قد

⁵⁵ المصدر السابق.

⁵⁶ «خطاب الدكتور عبد الرحمن شهبندر في التأبين»، المنار 35 (أبريل / نيسان 1936): 234-36.

<http://shamela.ws/browse.php/book-6947/page-4459#page-4474>.

⁵⁷ «خطاب السيد حبيب جاماتي»، المنار 35 (أبريل / نيسان 1936): 208-10.

نظم القوميون العلمانيون والمسيحيون حملات معارضة، وكانت المظاهرات قوية إلى درجة أن الحكومة حظرت النقاش العام حول هذه القضية. وبعد جدل محتدم، رفضت الجمعية التأسيسية وضع الإسلام كدين للدولة. لكن في الساعة الحادية عشرة، تمكن السباعي من إدراج فقرتين دينيتين في الدستور: أكدت المقدمة «استمساك» الدولة بالإسلام باعتباره دين الأغلبية، وذكرت المادة 3 أن «الفقه الإسلامي هو المصدر الرئيسي للتشريع».⁵⁸

كانت المادة الخاصة بالشريعة الإسلامية هي الأولى من نوعها في أي دستور عربي، إلا أنه ومنذ تلك اللحظة، تبنت جميع الدول العربية تقريباً نسخة ما من هذه المادة. واعتبر الإخوان المسلمون بسوريا سنة 1950 نصراً عظيماً، حتى في الوقت الذي استمروا فيه بالمطالبة بالديمقراطية ضد الديكتاتورية البعثية. إلا أن المعارضون قد رأوا تناقضاً بين إعطاء الأولوية للشريعة الإسلامية وبين ضمان المساواة لجميع المواطنين، وبين السيادة الشعبية وإصرار الإخوان على القرآن كمصدر للقانون.⁵⁹ أنهت المادة 3 بشكل فعلي التسوية التي توصل إليها رضا في عام 1920، عندما اعترف بأن هذا الشرط سيجعل المواطنين غير المسلمين في منزلة

الطائفية في مصر وسوريا. استمر الشقاق الليبرالي الإسلامي الذي ظهر وقت وفاة رضا عام 1935 في تحديد السياسة السورية والمصرية حتى بعد حصولهما على الاستقلال في أعقاب الحرب العالمية الثانية. عندما غادرت القوات الفرنسية سوريا في عام 1946، اتحد الإسلاميون السوريون في جماعة الإخوان المسلمين السورية الوطنية بقيادة مصطفى السباعي. وكان السباعي قد درس في القاهرة في ثلاثينيات القرن الماضي وحافظ على روابط وثيقة مع البناء. فاز هو واثنين من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين بمقاعد في البرلمان في عام 1947. وبعد ثلاث سنوات، في عام 1950، تمكن السباعي من الحصول على مقعد في الجمعية التأسيسية لكتابة الدستور. وكان يهدف إلى الانتقام من الهجوم على جماعة الإخوان المسلمين في العام السابق، عندما قام عقيد علماني بانقلاب عسكري وحظر التنظيم. بناءً على طلب العقيد، بدأت النساء المسلمات في خلع الحجاب في الشوارع.

اقترح السباعي، في سنة 1950، أن يتضمن الدستور أن الإسلام دين الدولة. وبرر ذلك كوسيلة لحشد دعم المواطنين بعد الهزيمة في حرب 1948 ضد إسرائيل، في مواجهة ذلك،

⁵⁸ The Constitution of Syria, September 5, 1950," trans. George J. Tomeh, in Constitutions of Nations, vol. 3, Nicaragua to Yugoslavia, ed. Amos J. Peaslee (The Hague: Martinus Nijhoff, 1956), 360–82; Joshua Teitelbaum, "The Muslim Brotherhood and the 'Struggle for Syria,' 1947–1958: Between Accommodation and Ideology," Middle Eastern Studies 40, no. 3 (May 2004): 134–58; and Majid Khadduri, "Constitutional Development in Syria: With Emphasis on the Constitution of 1950," Middle East Journal 5, no. 2 (Spring 1951): 137–60. Khadduri misstated that the 1920 constitution made Islam the religion of the state. He apparently relied upon an incorrect French translation of the Arabic text.

⁵⁹ Itzchak Weismann, "Democratic Fundamentalism? The Practice and Discourse of the Muslim Brothers Movement in Syria," Muslim World 100, no. 1 (January 2010): 1–16.

وتنص المادة على أن "الإسلام دين الدولة واللغة العربية هي لغتها الرسمية، مبادئ الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع".⁶² في كلا الدستورين، تنص المادة 3 على ما يلي: «مبادئ شرائع المصريين من المسيحيين واليهود المصدر الرئيسي للتشريعات المنظمة لأحوالهم الشخصية، وشؤونهم الدينية، واختيار قياداتهم الروحية.»

لقد فعلت هذه المواد ما كان يخشاه الأقباط الوفديون: فجعلت المسلمين هم المصريون الحقيقيون واعتبرت غير المسلمين أناساً مختلفين وتابعين. تضع المادتان 2 و3 غير المسلمين في موقف العيش تحت حكم إسلامي في المسائل المتعلقة بالسياسة العامة. وكما هو الحال في سوريا، يتعارض مصدر التشريع السماوي مع الالتزام الدستوري بالديمقراطية.

غير أن حكومة عبد الفتاح السيسي التي أعقبت الانقلاب، تراجعت عن سلطة رجال الدين المسلمين على القانون العام. فقام دستور 2014 بمراجعة وإزالة المادة 4 من نسخة دستور مرسى لعام 2012، والتي فرضت أخذ رأي هيئة

غير متساوية. وقد فرق رضا بوضوح وقتها بين الشؤون الدينية التي يحكمها الفقه الإسلامي، والشؤون العامة التي يجب أن تحكمها قوانين صادرة عن مجلس منتخب.

حافظ النظام البعثي الذي حكم سوريا منذ عام 1963 على مادة الشريعة الإسلامية، لأن التخلص منها، في الغالب، سيهدد شرعيته.⁶⁰ لكن، في أعقاب الحرب الأهلية السورية، التي مزقت الأمة على أسس طائفية دامية، دعا فقهاء دستوريون سوريون إلى إزالة المادة من الدستور.⁶¹

كما احتفظ النظامان السياسيان اللذان تأسسا في مصر بعد 2011 في الدساتير الخاصة بهما بمواد مماثلة لتلك المادة التي قُدمت سنة 1971 في ظل ظروف شديدة التسييس. سعى أنور السادات، من خلال المادة الثانية إلى تأليب الإسلاميين والمحافظين ضد خصومه العلمانيين والاشتراكيين، وتنص المادة على أن المصدر الرئيسي للتشريع هو الشريعة الإسلامية. بقيت المادة الثانية تقريباً كما هي في ستوري 2012 و2014، لكنها تتيح مجالاً للتأويل من خلال الإشارة إلى مبادئ الشريعة الإسلامية وليس الشريعة الإسلامية ذاتها:

⁶⁰ دستور الجمهورية العربية السورية الصادر عام 2012: https://www.constituteproject.org/constitution/Syria_2012.pdf?lang=ar

⁶¹ Nael Georges, "Constitutional Reform: The Case of Syria," in Vasconcelos and Stang, *Constitutional Reform in Times of Transition*, 117-24; and "The Constitution of Syria, September 5, 1950," *Constitutions of Nations*, 360-82.

⁶² Rainer Grote, "Constitutional Developments in Egypt: The New 2014 Egyptian Constitution," *Oxford Constitutional Law*, accessed February 12, 2019, <http://oxcon.ouplaw.com/page/egyptian-constitution/constitutional-developments-in-egypt-the-new-2014-egyptian-constitution>; and Carrie Rosefsky Wickham, *The Muslim Brotherhood: Evolution of an Islamist Movement* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2013), 29-33.

صحة الادعاء القديم للديكتاتوريين العرب، الذين يزعمون أن الديمقراطية ستطلق العنان للإسلاميين المتطرفين وأن هؤلاء الديكتاتوريين هم وحدهم من يستطيعون حماية الأقليات. يعزز كل من السيسي في مصر والأسد في سوريا الاعتقاد السائد بأنه يمكن تهدئة الانقسام السياسي من خلال تدخل قانوني وقضائي فوقي (من أعلى إلى أسفل).

يقدم المنظور التاريخي حقيقة مختلفة عن ذلك. فالاستقطاب بين النخبة الليبرالية والديمقراطيين الإسلاميين ليس استقطاباً مبدئياً بقدر ما هو معتمد على مخزون أدوار من التنافس السياسي المتجذر في ممارساتهم السياسية منذ عقود. وكما تظهر التسويات التي توصل إليها المؤتمر السوري وحزب الوفد خلال سنتي 1919-1920، فإن الانقسام الليبرالي-الإسلامي ليس أمراً عتيقاً. ومن المهم لنا أن نتفهم ذلك خاصة فيما يتعلق بشواغلنا بشأن السياسة المعاصرة، فهذا الانقسام هو من صنعة الإنسان، وبالتالي يمكن إزالته. إن فهم جذور هذا الانقسام يمثل البداية. فإذا تأتى لجانبي الانقسام فهم الدور الحاسم الذي لعبته القوى الخارجية في صناعة هذا الشقاق، يمكن لهما البدء في التركيز على إصلاح الأضرار الداخلية.

لا يمكن بالطبع إعادة عقارب الساعة إلى عام 1919. فلقد بنى الليبراليون والإسلاميون

كبار العلماء بالأزهر في الشئون التي تتعلق بالشرعية الإسلامية.⁶³

انقسامات راسخة

فشلت الانتفاضات العربية في إسقاط الدكتاتورية لأسباب كثيرة لم نناقشها هنا. كما فشلت الانتفاضات، بالقدر ذاته، في رأب الصدع الليبرالي الإسلامي الذي أضعف الحركة الثورية وأنتج دساتير تضع ضمانة على هذا الانقسام من خلال لغة متناقضة تقوض الإدماج والتعددية.

يحدد الفقهاء الدستوريون المشكلة من خلال مصطلحات إجرائية. فكما لاحظت ياسمين فاروق، وهي خبيرة دستورية أنه تمت صياغة الدساتير المصرية لما بعد عام 2011 بروح السياسي المنتصر على خصومه المدحورين، أولاً من قبل جماعة الإخوان المسلمين ثم من قبل المؤسسة العسكرية المتحالفة مع النخبة الليبرالية والمجموعات المسيحية. وكتبت ياسمين فاروق «تؤكد التجارب الدستورية لعامي 2012 و2013 أن المخرج الآمن الوحيد للعملية الدستورية المحكوم بمنطق توازن القوى قصير المدى هو المشاركة والتمثيل المتساوي لجميع القوى السياسية والاجتماعية».⁶⁴ يؤكد فشل الإصلاح الدستوري في مصر وسوريا على السواء، في نظر الصحفيين وصانعي السياسات،

⁶³ دستور مصر الصادر عام 2012 https://www.constituteproject.org/constitution/Egypt_2012.pdf?lang=ar

دستور مصر الصادر عام 2014 <http://www.sis.gov.eg/Newvtr/consttt%202014.pdf>

⁶⁴ Yasmine Farouk, "Writing the Constitution of the Egyptian Revolution: Between Social Contract and Political Contracting," in Vasconcelos and Stang, Constitutional Reform in Times of Transition, 116.

ويصوتون ويترشحون في البرلمان العثماني إلى قوم مستعقرين يراقبهم جنود الاحتلال. إن الإقرار بالضرر الذي حدث وتسكين الإذلال هو خطوة أساسية نحو تهدئة المواقف المتشددة.

يكن سبب آخر للغضب في وصم العرب بسمعة العنف الطائفي المتعصب، لأنهم يدينون بنفس ديانة الأتراك العثمانيين الذين ارتكبوا عمليات إبادة جماعية ضد الأرمن وفضائع ضد المسيحيين خلال الحرب. لقد أوجت فرنسا وبريطانيا بشكل روتيني بإمكانية أن تجدد الدول العربية التي يهيمن عليها المسلمون مذابح المسيحيين. في المقابل، أدى التمييز الديني لهذه القوى الأوروبية إلى تغذية وإذكاء شعلة الدفاع ورد الفعل من جانب الزعماء المسلمين، كما حدث مع عالم مخضرم مثل رضا أو العلماء الأصغر سناً مثل البنا. كانت الضربة الثالثة المريرة هي رؤية النخب من ملاك الأراضي تستفيد من الاحتلال الأجنبي وتبرر امتيازاتها من خلال الادعاء بأن الليبرالية ثقافة أوروبية يجب تعلمها. نجد هنا أساس الثورة الشعبية ضد الليبرالية النخبوية ورهائها من غير المسلمين. يجب على طائفي السياسة الحاليين أن يدركوا أن خطاب «الحرب على الإرهاب» قد أثار مشاعر مريرة متجذرة في التاريخ، فمثل هذا الخطاب يثير مبررات الجماعات الإسلامية المتشددة ويمحو ذاكرة وبالتالي إمكانات السياسة الإسلامية الحديثة.

تساعد معرفة أصول الانقسام السياسي على التئامه، أو على الأقل تخفيفه، من خلال تشجيع

منظمات عديدة على مدى العقود الماضية بناءً على رموز وسرديات تحجب هذا التاريخ. وألهم كلا الجانبين أتباعهم من خلال خطاب استقطابي أصولي يجد برهاناً له في كل دورة عنف جديدة. المعرفة التاريخية ليست سوى نقطة انطلاق للجيل القادم من الناشطين الذين قد يحاولون إعادة بناء تحالف ضد الديكتاتورية. لكنها نقطة انطلاق ضرورية. إذ لا يمكنهم أن يأملوا في الوقوف بقوة ضد الأنظمة القمعية طالما ظل هذا الانقسام قائماً. فالأمل في تجاوز الانقسام يكمن في العودة إلى المبادئ الأولى والاعتراف بأصول ذلك الشقاق.

أظهرت هذا الاستعراض الموجز للتاريخ أن إصرار الأوروبيين على احتلال سوريا ومصر والأراضي العربية الأخرى بعد الحرب العالمية الأولى أضعف الأسس الذي سعى الليبراليون العرب لإنشاء دول قومية جديدة عليها. وكانت أشد الأضرار هي خيانة الدول الأوروبية لليبراليين العرب: فقد وعد الحلفاء المنتصرون الذين تجمعوا في باريس بنظام عالمي جديد لا يستند إلى القوة الإمبريالية بل إلى حقوق الشعوب. لقد قدموا وعوداً إضافية صريحة لشعبي سوريا الكبرى ومصر في مقابل دعمهم في المجهود الحربي. لم يكن الأمر ببساطة هو حرمان العرب من حقوقهم في عامي 1919 و1920. لكن الأمر أن العرب قد تمت دعوتهم للانضمام إلى أسرة الأمم ذات السيادة، وما إن حاولوا الانضمام حتى تم طردهم بعنف. لقد ذاق السوريون ذل تحولهم من مواطنين يتمتعون بالحكم الذاتي

المؤرخين وأساتذة القانون وعلماء السياسة المعاصرة على طرح أسئلة جديدة حول أسباب الاحتكاك وانعدام الثقة بين الفصيلين السياسيين. يكمن جوهر المسألة في أن يفهم الليبراليون والإسلاميون أين تكمن خلافاتهم: ليس في الإيديولوجيا الدوجمائية غير القابلة للتغيير، بل في أحداث سياسية وقعت قبل قرن من الزمان. يعلم كل سياسي أن سرد القصاص هو أفضل وسيلة للإقناع، ويمكن تحقيق ذلك من خلال المحادثات الجديدة التي تتناول بطريقة مثمرة الأمر شديد الوضوح الذي يتجاهله الجميع إلى الآن. إذ يمكن للأكاديميين والناشطين وصانعي السياسات على حد سواء، من خلال العمل من منظور تاريخي، وضع الجمود الحالي في السياسة العربية في سياق عالمي مقارن، وبالتالي إيقاف الاستنساخ المجنون للأطروحات غير الصحيحة حول ما يسمى بعدم توافق الإسلام والديمقراطية.